سورة الرعد

وهي من السور المكية . (نزلت قبل الهجرة) .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ (١)) .

[الرعد : ١] .

(**الر**) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور .

(**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**) أي : هذه آيات الكتاب .

ف(تِلْكَ) إشارة إلى آيات السورة المسماة بالر.

والمراد بالكتاب : القرآن .

أي : تلك الآيات التي نقرؤها عليك- يا محمد- في هذه السورة هي آيات الكتاب الكريم .

- **وذهب بعض العلماء** : أن المراد بالكتاب : التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد.

- وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

(**وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ**) أي : وما أنزله الله- تعالى- عليك في هذا الكتاب، هو الحق الخالص الذي لا يلتبس به باطل، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (مِن رَّبِّكَ الحق) لا كما يقول المشركون : إنك تأتي به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، واعمل بما فيه.

- **قال مقاتل** : نزلت حين قال المشركون : إن محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه.

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ**) لبيان موقف أكثر الناس من هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أي : لقد أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن بالحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم .

الفوائد :

١-إعجاز القرآن، فإنه مكوّن من جنس الحروف التي يتألف منها سائر الكلام، وقد عجزت العرب أن يأتوا بسورة مثله.

٢ - أن من أسماء القرآن الكتاب.

٣- أن القرآن منزل غير مخلوق.

٤ - إثبات علو الله تعالى.

٥ - أن القرآن منزل على محمد ﷺ .

٦- تحريم التكذيب بالقرآن.

٧ - وجوب الإيمان بالقرآن.

٨- أن القرآن كله حق ، وما جاء به متضمن للحق الكامل.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)) .

[الرعد : ٢] .

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ أَنَّهُ الذي بإذنه وأمره رفع السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ، بَلْ بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ رَفَعَهَا عن الأرض بعدا لا تنال ولا تدرك مَدَاهَا.

– وقوله (بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) قيل : لها عمد لكنها لا ترى . (يعني لها عمد لكنها غير مرئية) .

وقيل : هي مرفوعة بلا عمد كما ترونها . (أي : كما نراها ونشاهدها من غير عمد) .

- **ورجح هذا ابن كثير فقال** : قَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ «٢» ، يَعْنِي بِلَا عَمَدٍ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِالسِّيَاقِ، وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: تَرَوْنَهَا تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ، أَيْ هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الْقُدْرَةِ،

- **قال الخازن** : في قوله : (ترونها) قولان :

أحدهما : أن الرؤية ترجع إلى السماء يعني : وأنتم ترون السماوات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعني ليس من دونهما دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها ، والمراد نفي العمد بالكلية.

قال إياس بن معاوية : السماء مقببة على الأرض مثل القبة ، وهذا قول الحسن وقتادة و جمهور المفسرين ،

والعمد: جمع عماد، وهو ما تقام عليه القبة أو البيت.

والقول الثاني : إن الرؤية ترجع الى العمد ، والمعنى أن لها عمداً ولكن لا ترونها أنتم .

والقول الأول أصح .

– ولا شك أن خلق السموات على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقا قادرا حكيما، هو المستحق للعبادة والطاعة.

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) أي: علا وارتفع على العرش، وأما كيفية ذلك فالله أعلم بكيفيته.

– والعرش: ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، وهو من أعظم المخلوقات.

– وفي الآية إثبات العرش.

والعرش: لغة عبارة عن السرير الذي للملك، سمي عرشاً لارتفاعه عليه

وشرعاً: هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات، **وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة:**

– وصفه بالعظمة:

قال تعالى (ورب العرش العظيم).

– ووصفه بأنه كريم:

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

– ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش:

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش).

- وأخبر سبحانه أن للعرش حملة:

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...).

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

- وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض:

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء).

- وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس:

قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن).

- وله قوائم:

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

- في هذه الآية إثبات أن الله مستو على عرشه، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، استواء يليق بجلاله من غير تكييف.

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن.

وقد فسر أهل التعطيل الاستواء بمعنى الاستيلاء، واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو درهم راق

لكن هذا البيت لا يعرف قائله.

(**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**) أي : ذلل الشمس والقمر لمصالح العباد .

كما قال تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) .

- **قال الشيخ السعدي رحمه الله** : وتسخيره للشمس والقمر ، يجريان بتدبير ونظام ، لم يختل منذ خلقهما ، لقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ، ما به يعتبرون وينتفعون .

– والاقتصار على الشمس والقمر ؛ لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرهما ، فتسخير غيرهما يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرهما مع غيرهما في قوله تعالى (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْر) .

(**كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى**) أي : كل يسير بقدرته تعالى إلى زمن معين .

والجري : السير السريع.

كما قال تعالى (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .

– وقوله (لأَجَلٍ مُّسَمًّى) أي : إلى وقت معلوم .

وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التي عندها تُكوّر الشمس ، ويُخسَف القمر ، وتنكدر النّجوم ، وتنتثر الكواكب.

كما وصف الله تعالى ذلك في قوله (إِذَا الشمس كُوِّرَتْ * وَإِذَا النجوم انكدرت) (إِذَا السماء انشقت) و (إِذَا السماء انفطرت) (وجُمِعَ الشمس والقمر) .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (كل يجري لأجل مسمى) أي : إلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا.

- **وقال الخازن** : قوله تعالى (كلٌّ يجري لأجل مسمى) يعني إلى وقت معلوم ، وهو وقت فناء الدنيا وزوالها.

(**يُدَبِّرُ الأَمْرَ**) أي : يصرّف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشؤون الملكوت ، من إيجاد وإعدام ، وإحياء وإماتة ، وإغناء وفقر .

(**يُفَصِّلُ الآيَاتِ**) يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته .

- **قال الشوكاني** : أي يبينها ، وهي الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته ، ومنها ما تقدّم من رفع السماء بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى .

(**لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**) أي : لعلكم توقنون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل ، لا بد لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء ؛ فإن من تدبر حق التدبر ؛ أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ؛ قدر على الإعادة والجزاء ! .

الفوائد :

١- بيان شيء من قدرة الله تعالى .

٢- أن خلق السماوات من أعظم الآيات التي تدل على قدرة الله وعظمته .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أي: وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون).

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جلا وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض ، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) ، وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

٣- من الآيات العظيمة رفع السماوات بغير عمد .

٤- إثبات استواء الله على العرش من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل .

٥- إثبات علو الله تعالى .

٤-نعمة الله على عباده بتسخير الشمس والقمر لهم .

(**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)**)

[الرعد : ٣-٤] .

(**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ**) المد: البسط والسعة .

أي : أن الله بسط الأرض طولاً وعرضاً إلى المدى الذي لا يدركه البصر، ليتيسر الاستقرار عليها.

وقد وصفها الله بصفات أخرى : كلها تدل على أن الله جعلها مستقرة ثابتة ممهدة فراشاً.

فقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) .

وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً) .

وقال تعالى (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) .

وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً) والمراد بالقرار: أنها لا تميد بساكنيها، أي لا تضطرب كما قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً)

(قراراً) مستقراً بالدحو والتسوية. (مددناها) بسطناها ووسعناها (مهداً) كالفراش الذي يُوطّأُ للصبي.

وهذه من أعظم النعم أن جعل سبحانه الأرض فراشاً ومهاداً.

- **قال ابن القيم**: وإذا نظرت إلى هذه الأرض وكيف خلقت؟ رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً وذللها لعباده.

(**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ**) الرواسي: الجبال مأخوذ من الرسو، وهو ثبات الأجسام الثقيلة .

أي : وجعل في هذه الأرض جبالا ثوابت راسخات، لتمسكها من الاضطراب .

كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .

وقال تعالى (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ) .

وقال تعالى (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) .

وقال تعالى (أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ) .

(**وَأَنْهَارًا**) الأنهار: جمع نهر، وهو مجرى الماء الفائض، ويطلق على الماء السائل على الأرض.

أي : وجعل فيها -أيضاً- أنهاراً ، لينتفع الناس والحيوان وغيرهما بمياه هذه الأنهار.

كما قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

(**وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**) أي : وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكرا وأنثى.

قال صاحب الكشاف: أي خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت.

وقيل: أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأوصاف المختلفة .

(**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**) كما قال تعالى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) .

- **قال الآلوسي**: وقوله تعالى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) أي: يغطيه به، يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار، فيغطيه ويلبسه، حتى يذهب بنوره، ويصير الجو مظلماً، بعد ما كان مضيئاً.
- **وقال ابن عاشور**: والإغشاء والتّغشية: جعل الشّيء غاشياً، والغَشْي والغشيان حقيقته التّغطيّة والغمّ.

أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). قوله (وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما. (تفسير ابن كثير).

- **قال الشنقيطي**: ومعنَى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) العربُ تقولُ: أَغْشَاهُ الشيءُ يغشيه. إذا جعلَه غشاءً له وساترًا ومغطيًا له.

معناه: يجعلُ الليلَ مُغْشِيًا للنهارِ، أي: مُغَطِّيًا ضوءَ النهارِ بظلامِه، يذهبُ بضوءِ النهارِ ويغطي ضوءَه بظلامِ الليلِ.

وهذا من غرائبِ صنعِه وعجائبِ آياتِه. وفي الآيةِ محذوفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: وَيُغْشِي النهارُ الليلَ أيضًا، فيأتِي ضوءُ النهارِ وَيغْشَى ظلامَ الليلِ فَيُذْهِبُهُ ويحل محلَّه، كما قال: (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فالإتيانُ بالليلِ بدلَ النهارِ والإتيانُ بالنهارِ بدلَ الليلِ من أعظمِ آياتِ اللَّهِ – جل وعلا – الدالة على أنه المعبودُ وحدَه، وأنه الربُّ وحدَه، ومع كونِ الليلِ والنهارِ آيتين فَهُمَا أيضًا نعمتانِ عظيمتانِ من أعظمِ نِعَمِ اللَّهِ على خَلْقِهِ، فهما جامعانِ بينَ كونِهما آيتين وكونهما نعمتين، وَبيَّنَ أنهما آيتانِ بقولِه (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) وَبَيَّنَ أنهما نعمتانِ وآيتانِ في مواضعَ كثيرةٍ من أصرحِها سورةُ القصصِ حيث قال فيها: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ثم بَيَّنَ أنهما نعمتانِ بعدَ بيانِ أنهما آيتانِ قال: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يعني النهار.

فجعل الليلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا للسكونِ والهدوءِ وعدمِ الحركةِ ليستريحَ الناسُ من كَدِّ الأعمالِ والتعبِ في النهارِ، ثم يجعلُ النهارَ مُضِيئًا مُنِيرًا مُنَاسِبًا لِبَثِّ الناسِ في حوائجِهم واكتسابِ معايشهم في نورٍ ساطعٍ من غيرِ فتيلةٍ ولاَ زيتٍ ولاَ حاجةٍ إلى مؤنة.

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) أي: إن في ذلك الذي فعله الله تعالى من بسط الأرض طولاً وعرضاً ومن تثبيتها بالرواسى، ومن شقها بالأنهار ... لآيات باهرة، ودلائل ظاهرة على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده، لقوم يحسنون التفكر، ويطيلون التأمل في ملكوت السموات والأرض.

(**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ**) متجاورات ، أي : متلاقيات ومتقاربات.

وليس هذا الوصف مقصودا لذاته، بل المقصود أنها مع تجاورها وتقاربها مختلفة في أوصافها مما يشهد بقدرة الله– تعالى– العظيمة.

- **قال ابن كثير** : وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ أي : أراض يجاور بعضها بعضاً ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا، وهذه تربتها حمراء، وتلك تربتها سوداء ... وهذه محجرة وتلك سهلة ... والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(**وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ**) الجنات جمع جنة .

والمراد بها البستان ذو الشجر المتكاثف، الملتف الأغصان الذي يظلل ما تحته ويستره.

والمراد بالزرع: أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطعومها وصفاتها .

وفيها زرع ونخيل (صنوان) النخلتان والثلاث في أصل واحد ، (غير صنوان) كل نخلة قائمة على أصلها .

أي :... وفيها أيضاً بساتين كثيرة من أعناب ومن كل نوع من أنواع الحبوب.

وفيها كذلك نخيل يجمعها أصل واحد فهي صنوان، ونخيل أخرى لا يجمعها أصل واحد فهي غير صنوان.

والكل من الأعناب والزرع والنخيل وغيرها يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ لا اختلاف في ذاته سواء أكان السقي من ماء الأمطار أم من ماء الأنهار ومع وجود أسباب التشابه، فإننا لعظيم قدرتنا وإحساننا نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ آخر منها فِي الْأُكُلِ أي: في اختلاف الطعوم.

- **قال الطبري**: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ ، والكمثرى ، والعنب الأبيض والأسود ، بعضها حلو ، وبعضها حامض ، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شرب واحد .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**) أي: لعلامات ودلالات وبراهين.

(**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) أي: يتفكرون فيها وينظرون إليها بعين العقول، فيستدلون على قدرته، سبحانه، القاهرة، وحكمته الباهرة، ورحمته الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به جل شأنه.

- **قال السعدي**: والحاصل، أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك، أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

قال تعالى (وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ)

- **قال الشوكاني**: والمراد بالذين لا يعقلون: هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله، ولا يتفكرون في آياته، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

- يختم الله كثيرًا من الآيات عندما يبين للعباد الأصول و الأحكام النافعة بقوله: لعلكم تعقلون وهذا يدل على أمور:

منها: أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه و إرشاداته و تعليماته، فنحفظها و نفهمها و نعقلها بقلوبنا، ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها.

ومنها: أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذي بينه بيانًا خاصًا، فإنه يحب أن نعقل بقية ما أنزل من الكتاب و الحكمة، وأن نعقل آياته المسموعة و آياته المشهودة.

ومنها: أن هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله إلينا من أعظم ما يربي عقولنا ويجعلها عقولاً تفهم الحقائق النافعة والضارة، وترجح هذه على هذه، ولا تميل بها الأهواء و الأعراض و الخيالات و الخرافات المفسدة للعقول.

الفوائد :

١- من نعم على عباده أنه مد الأرض وبسطها .

٢- من نعمة الله على عباده أيضاً خلق الجبال تثبيتاً للأرض .

٣-آيات الله التي تدل على قدرته وعظمته كثيرة ومتنوعة : وجود الأنهار ، وجعل من كل الثمرات زوجين اثنين .

٤- من أعظم آيات الله العظيمة الليل والنهار .

٥- فضيلة التفكر في الآيات الكونية .

٦-من آيات الله الباهرة أن الأرض مجاورة لأرض أخرى ومع ذلك تختلف هذه عن تلك .

٧- اختلاف الزروع والحبوب بالطعم مع أنها كل تسقى بماء واحد .

٨- فضيلة العقل للاهتداء به الى معرفة الحق واتباعه للإسعاد ولإكمال .

٩- رحمة الله بتصريف وتنويع الآيات لعباده لعلهم يهتدون ويؤمنون .

(وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ (٥)) .

[الرعد : ٥] .

(وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) قيل : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث .

وقيل : معناه وإن تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض ، وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب لهم به الأمثال ما رأوا فعجب قولهم .

وقيل : وإنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك أن المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب

(قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا) يعني بعد الموت .

(أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) يعني نعاد خلقاً جديداً بعد الموت كما كنا قبله .

- **قال ابن كثير** : وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ عَالِمٍ وعاقل أن خلق السموات وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مَنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَأَنَّ مَنْ بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كَمَا قَالَ تَعَالَى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ) فيه كفر من أنكر البعث .

(وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) الأغلال : جمع غلّ ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق ، أي : يغلون بها يوم القيامة .

كما قال تعالى (إِذِ الأغلال فِي أعناقهم والسلاسل يُسْحَبُونَ * فِي الحميم ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ) .

(وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ) أي : ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون .

- وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:

الطريقة الأولى: آيات صريحة في إثبات ذلك:

قال تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ).وقال تعالى: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ).وقال تعالى: (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ).وقال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).وقال تعالى: (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد:

فقال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ).

وقال تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

وقال تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

وذم الله المكذبين بالمعاد:

فقال تعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

وقال تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً).

الطريقة الثانية: التذكير بنشأة الإنسان الأولى:

قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ).

وقال تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

والذي أنشأها أول مرة هو الله ، فإذا كان الله أنشأها أول مرة فهو قادر على إعادتها ، لأن الإعادة أهون من الابتداء .

الطريقة الثالثة: الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات:

قال تعالى: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الطريقة الرابعة: الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات:

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال تعالى (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) وهذا أمر معلوم بالحس والمشاهدة ، فالبشر كلهم لا يساوون كوكباً من الكواكب ، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله .

الطريقة الخامسة: تنزيه الله سبحانه عن العبث.

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث، فما فائدة الأوامر والنواهي.

قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ).

وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً). أي: لا يؤمر ولا ينهى، وقيل لا يبعث.

الطريقة السادسة: تنزيه الله عن الظلم:

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه، والكافر لا يعرف ربه أصلاً.

قال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ).

الطريقة السابعة: ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث.

كما في قصة قتيل بني إسرائيل.

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها.

وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة.

وقصة أصحاب الكهف، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، قال تعالى في قصتهم: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...

الفوائد :

١-التعجب من إنكار البعث مع وضوح أدلته وقدرة الله تعالى .

٢-وجوب الإيمان بالبعث .

٣-كفر من أنكر بالبعث ..

٤-أن الكافر مخلد في النار لا يخرج منها .

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦))

[الرعد : ٦] .

(**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**) أي : هؤلاء المكذبون .

(**بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**) بالعقوبة والعذاب ، وذلك لفرط إنكارهم وتكذيبهم .

فالمراد بالسيئة ههنا نزول العذاب عليهم ، وإنما سموا العذاب سيئة لأنه يسوءهم ويؤذيهم.

- **قال الخازن** : الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته ، والمراد بالسيئة هنا هي العقوبة وبالحسنة العافية .
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة) بالعقوبة التي هددوا بها على الإصرار على الكفر استهزاءً وتكذيباً (قَبْلَ الحسنة) أي العافية والسلامة منها . (التفسير) .

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) أي : عقابنا وحسابنا .

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

وقال تعالى (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

- **قال الشنقيطي** : وسبب طلبهم لتعجيل العذاب هو العناد، وزعم أن النَّبي ﷺ كذاب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه.

كما قال تعالى (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) .

وكقوله (يَا صَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين) .

وقوله (قَالُواْ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين) .

(**وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ**) أي : وقد أوقعنا نقَمَنا بالأمم الخالية ، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم .

- **قال ابن عطية** : ... وقرأ الجمهور " المثُلات " بفتح الميم وضم الثاء .

فالمثلات : العقوبات التي مثل الله تعالى بها الأمم الماضية .

- **قال الخازن** : والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع غيره به .

– **وقال ابن عاشور** : وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالاً تُمثل به العقوبات.

- **قال القباعي** : (مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ) جمع مَثُله بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات ، سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ، وهي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله من الأمم الذين اتصلت بهم أخبارهم ، وخاطبتهم بعظيم ما اتفق لهم آثارهم وديارهم ، وما يؤخرهم الله إلا لاستيفاء آجالهم التي ضربها لهم مع قدرته التامة عليهم.

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ**) وهو الستر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أي : إنه ذو صفح عظيم لا يعاجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . كما قال سبحانه (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) .

- **قال ابن عاشور** : وسياق الآية يدل على أن المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجل أراده الله أو إلى يوم الحساب ، وأن المراد بالعقاب في قوله (وإن ربك لشديد العقاب) ضد تلك المغفرة وهو العقاب المؤجل في الدنيا أو عقاب يوم الحساب ، فمحمل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على الشرك.

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**) لما بين تعالى سعة حلمه قرنه ببيان قوة عقابه ؛ ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه (وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) أي : لمن شاء ،.

كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقال سبحانه (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ) .

وقال تعالى (غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول) .

- **قال الشنقيطي** : بين – جل وعلا – في هذه الآية الكريمة أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وأنه شديد العقاب. فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس على فضله ، ويشتد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد. لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر ، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة كما تقدم في الآيات السابقة .

- فينبغي على المسلم أن يكون راجياً خائفاً.

وقد امتدح الله الأنبياء والعباد الصالحين بالرغبة والرهبة.

فقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ «كَيْفَ تَجِدُكَ». قَالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ). رواه الترمذي

وقد وصف الله المؤمنين بعمل الصالحات مع الخوف من الله.

كما قال الله تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقون) .

عن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ: لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) رواه الترمذي.

وقد ذكر الله تعالى الخوف مقرونًا بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة.

قال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ).

وقوله تعالى (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقوله تعالى (نَبّاء عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ*وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ).

وقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً).

وقوله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا).

وكما في قوله سبحانه (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا).

ولهذا قال السَّلف – رحِمهم الله – كلِمةً مشهورةً، وهي: مَنْ عبدَ الله بالحبِّ وحده، فهو زنديق، ومَن عبدَه بالخوف وحْده، فهو حروريٌّ – أي: خارجي – ومَن عبدَه بالرَّجاء وحْده، فهو مرجئ، ومن عبدَه بالخوف والحب والرَّجاء، فهو مؤمن موحِّد.

- **قال ابن القيم**: القلب في سيره إلى الله – عزَّ وجلَّ – بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأس والجناحان، فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر.
- **وقال ابن القيم**: من تأمل الصحابة وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف.

كان الصديق يقول: وددت لو أني شعرة في جنب عبد مؤمن.

وكان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وكان يبكي كثيراً ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

وهذا عمر قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً.

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته.

وهذا علي وبكاؤه وجوفه، وكان يشتد خوفه من اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.

وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

- **وكان أبو ذر يقول**: يا ليتني كنت شجرة تعضد، وودت أني لم أخلق. ... (الجواب الكافي).
- **قال الحسن البصري**: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

تنبيه : وَذِكْرِ الطَّمَعِ الَّذِي هُوَ الرَّجَاءُ فِي آيَةِ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ مَا لَمْ يَطْمَعْ فِي سُؤَالِهِ وَمَطْلُوبِهِ لَمْ تَتَحَرَّكْ نَفْسُهُ لِطَلَبِهِ؛ إذْ طَلَبُ مَا لَا طَمَعَ لَهُ فِيهِ مُمْتَنِعٌ.

- **قال حكيم**: الحزن يمنع الطعام، والخوف يمنع الذنوب، والرجاء يقوي على الطاعة، وذكر الموت يزهد في الفضول.

الفوائد :

١- شدة تكذيب وعناد الكفار حيث يستعجلون بالعذاب استهزاء وابتعاداً .

٢-أن الكفار لا يعتبرون بما حصل للأمم المكذبة من قبلهم .

٣- أن من علامة الإيمان الاعتبار بما حصل للأمم المكذبة .

٤- حلم الله على عباده ، حيث لا يعاجلهم بالعقوبة .

٥-سعة مغفرة الله .

٦-شدة عقاب الله لمن كذب وتمادى .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧))

[الرعد : ٧] .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله.

ولقد حكى القرآن - في آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من النبي ﷺ والتي تدل على عنادهم وجحودهم.

ومن ذلك قوله تعالى (وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ. قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا).

كما حكى أيضاً سبحانه أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا، لأنهم معاندون جاحدون .

فقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيم).

وقال سبحانه: (وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ).

يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله عليه السلام بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه.

- ومرادهم بالآية التي طلبوها: آية كونية سوى القرآن الكريم، بأن تكون معه ﷺ ناقة كناقة صالح عليه السلام أو تكون معه عصا كعصا موسى عليه السلام وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى، ومعجزة عظمى على صدقه ﷺ .

ومرادهم بإنزالها عليه: ظهورها على يديه ﷺ حتى يروا ذلك بأعينهم.

ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والثبت، قال تعالى (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّه).

ومن أعظم الآيات إنزال القرآن الكريم :

ولأجل عظم هذه الآية وكبرها وأنها أعظم الآيات وأكبرها أنكر (جلّ وعلا) على مَنْ طَلَب آية غيرها إنكارًا شديدًا في سورة العنكبوت حيث قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ثم أنكر عليهم طلب آية غيره قال (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً)، فمن لم يكتف بهذه الآية العظمى عن جميع الآيات فهو جدير بأن ينكر عليه .

(إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ) أَيْ : إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللَّهِ الَّتِي أمرك بها، ولَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ .

- **قال الشنقيطي** : أيْ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنْذَارُ ، أَمَّا هُدَاهُمْ وَتَوْفِيقُهُمْ فَهُوَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا أَنَّ حِسَابَهُمْ عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا .

وَقَدْ بَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ، كَقَوْلِهِ (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

وَقَوْلِهِ (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

– وهكذا الأنبياء إنما عليهم البلاغ والإنذار كما قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ أنه قال (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ). وقال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ). وقال تعالى (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ).

– وإنما قصر سبحانه هنا وظيفة النبي ﷺ على الإنذار، لأنه هو المناسب لأحوال المشركين الذين أنكروا كون القرآن معجزة.

(**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) **قيل** : الهادي هو الله ، ويكون المعنى : إنما إليك الإنذار ، والله الهادي.

وقيل : لكل قوم داع .

وقيل : لكل قوم قائد .

- **قال الشنقيطي** : أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقَوْمِ الْأُمَّةُ ، وَالْمُرَادَ بِالْهَادِي الرَّسُولُ .

كَمَا يَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ) .

وَقَوْلُهُ (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) .

وَقَوْلُهُ (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا) .

- **تنبيه :**

قال ابن الجوزي : وقد روى المفسرون من طرق ليس فيها ما يثبت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره ، فقال :

"أنا المنذِر" وأومأ بيده إلى منكب عليٍّ ، فقال : "أنت الهادي يا عليُّ بك يُهتدى من بعدي" قال المصنف : وهذا من موضوعات الرافضة.

الفوائد :

١ – شدة تعنت الكفار وطغيانهم.

٢–أن الكفار جاءتهم من الآيات ما يكفي لو كانوا صادقين .

٣– أن مهمة الرسل الإنذار .

٤– أن الهداية بيد الله .

٥– أن الرسول لا يستطيع أن يهدي أحداً هداية توفيق .

٦–أن الله يبعث في كل أمة رسولاً .

٧– إثبات الرسل .

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠))

[الرعد : ٨–١٠] .

(**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى**) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِنَاثِ الْحَيَوَانَاتِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) أَيْ مَا حَمَلَتْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أُنْثَى، أَوْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ، أَوْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، أَوْ طويل العمر

أو قصيره .

كقوله تَعَالَى (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ) .

وَقَالَ تَعَالَى (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ) أَيْ : خَلَقَكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْدِ طَوْرٍ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يبعث الله إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رِزْقَهُ، وَعُمُرَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشِقِّيٌ أَوْ سَعِيدٌ) .

- **قال الشنقيطي** : قَوْلُهُ تَعَالَى (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى) لَفْظَةُ «مَا» فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ ، أَيْ يَعْلَمُ الَّذِي تَحْمِلُهُ كُلُّ أُنْثَى . وَعَلَى هَذَا فَالْمَعْنَى : يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُهُ مِنَ الْوَلَدِ عَلَى أَيِّ حَالٍ هُوَ مِنْ ذُكُورَةٍ ، وَأُنُوثَةٍ ، وَخِدَاجٍ ، وَحُسْنٍ ، وَقُبْحٍ ، وَطُولٍ ، وَقِصَرٍ ، وَسَعَادَةٍ ، وَشَقَاوَةٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ .

وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، كَقَوْلِهِ (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) لِأَنَّ «مَا» فِيهِ مَوْصُولَةٌ بِلَا نِزَاعٍ .

وَكَقَوْلِهِ (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) .

وَقَوْلِهِ (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) .

(**وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ**) تَغِيضُ من الغيض بمعنى النقص. يقال: غاض الماء إذا نقص.

أي : وهو وحده سبحانه الذي يعلم ما يكون في داخل الأرحام من نقص في الخلقة أو زيادة فيها، ومن نقص في مدة الحمل أو زيادة فيها، ومن نقص في العدد أو زيادة فيه .

- **قال ابن عباس** : ما تغيض بالوضع لأقل من تسعة أشهر ، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر .

وقيل : المراد بالغيض : السقط الناقص ، وبالازدياد : الولد التام .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وما تغيض الأرحام وما تزداد) فيه خمسة تأويلات :

أحدها : (وما تغيض الأرحام) بالسقط الناقص (وما تزداد) بالولد التام ، قاله ابن عباس والحسن.

الثاني : (وما تغيض الأرحام) بالوضع لأقل من تسعة أشهر، (وما تزداد) بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، قاله سعيد بن جبير والضحاك. وقال الضحاك : وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين وولدتني وق خرجت سني.

الثالث : (وما تغيض الأرحام) بانقطاع الحيض في الحمل (ما تزداد) بدم النفاس بعد الوضع. قال مكحول : جعل الله تعالى دم الحيض غذاء للحمل.

الرابع : (وما تغيض الأرحام) بظهور الحيض من أيام على الحمل، وفي ذلك نقص في الولد (وما تزداد) في مقابلة أيام الحيض من أيام الحمل، لأنها كلما حاضت على حملها يوماً ازدادت في طهرها يوماً حتى يستكمل حملها تسعة أشهر طهراً، قال عكرمة وقتادة.

الخامس : (وما تغيض الأرحام) من ولدته قبل (وما تزداد) من تلده من بعد ، حكاه السدي وقتادة.

- **قال الشنقيطي** : مَرْجِعُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِمَا تَنْقُصُهُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِيدُهُ ؛ لِأَنَّ مَعْنَى تَغِيضُ : تَنْقُصُ ، وَتَزْدَادُ ، أَيْ : تَأْخُذُهُ زَائِدًا ، فَيَشْمَلُ النَّقْصَ الْمَذْكُورَ : نَقْصَ الْعَدَدِ ، وَنَقْصَ الْعُضْوِ مِنَ الْجَنِينِ ، وَنَقْصَ جِسْمِهِ إِذَا حَاضَتْ عَلَيْهِ فَتَقَلَّصَ ، وَنَقْصَ مُدَّةِ الْحَمْلِ بِأَنْ تُسْقِطَهُ قَبْلَ أَمَدِ حَمْلِهِ الْمُعْتَادِ ، كَمَا أَنَّ الِازْدِيَادَ يَشْمَلُ : زِيَادَةَ الْعُضْوِ ، وَزِيَادَةَ الْعَدَدِ ، وَزِيَادَةَ جِسْمِ الْجَنِينِ إِنْ لَمْ تَحِضْ وَهِيَ حَامِلٌ ، وَزِيَادَةَ أَمَدِ الْحَمْلِ عَنِ الْقَدْرِ الْمُعْتَادِ ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَالْآيَةُ تَشْمَلُهُ كُلَّهُ .

- **قال البخاري** : باب قَوْلِهِ (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلاَ

يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ اللَّهُ) .

(**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**) أي :كل شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود ، لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة .

كما قال تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ) .

وكما قال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) .

فهو سبحانه يعلم كمية كل شيء وكيفيته وزمانه ومكانه وسائر أحواله .

- **قال ابن كثير** : أَيْ بِأَجْلٍ، حَفِظَ أَرْزَاقَ خَلْقِهِ وَآجَالَهُمْ، وَجَعَلَ لِذَلِكَ أَجَلًا مَعْلُومًا.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بَعَثَتْ إِلَيْهِ أَنَّ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ، وَأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ يَحْضُرَهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهَا يَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلِتَحْتَسِبْ .

(**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**) أَيْ : يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ وَمِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْء .

أي : ما غاب عن الحس وما كان مشاهداً منظوراً ، فعلمه تعالى شامل للخفي والمرئي ، لا يخفى عليه شيء .

- **قال الطبري**: عالم ما تعاينون – أيها الناس – فتشاهدونه ، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه. عن العباد وما يشاهدونه ، لا يغيب عن علمه شيء.
- **قال البغوي**: يعني يعلم ما غاب.

(**الْكَبِيرُ**) الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

(**الْمُتَعَالِ**) أي : العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ، المستعلي على كل شيء بقدرته ، المنزه عن المشابهة والمماثلة .

- **قال ابن الجوزي** : والمتعالي هو المتنزّه عن صفات المخلوقين .

(**سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ**) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وأنه سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ أَسَرَّ قَوْلَهُ أَوْ جَهَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ .

كقوله (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى) .

وَقَالَ تعالى (وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ) .

قالت عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (سُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ سمعه الْأَصْوَاتَ، وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا فِي جَنْبِ الْبَيْتِ، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ كَلَامِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) .

(**وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**) أي : وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ أَيْ مُخْتَفٍ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ، وَسارِبٌ بِالنَّهارِ أَيْ ظَاهِرٌ مَاشٍ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ وَضِيَائِهِ، فَإِنَّ كِلَيْهِمَا فِي عِلْمِ الله على السواء .

كقوله تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

وَقَوْلِهِ (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وَقَوْلِهِ تعالى (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وَقَوْلِهِ تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وقوله تعالى (وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ) .

وَأَظْهَرُ الْقَوْلَيْنِ فِي الْمُسْتَخْفِي بِاللَّيْلِ وَالسَّارِبِ بِالنَّهَارِ : أَنَّ الْمُسْتَخْفِيَ هُوَ الْمُخْتَفِي الْمُسْتَتِرُ عَنِ الْأَعْيُنِ ، وَالسَّارِبَ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَارِزُ الذَّاهِبُ حَيْثُ يَشَاءُ . (أضواء البيان) .

الفوائد :

١- عموم علم الله تعالى وأنه عليم بكل شيء لا تخفى عليه خافية .

أولاً: الله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكليات.

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً: يعلم سبحانه الماضي والمستقبل.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ).

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي.

ثالثاً: الله يعلم الخفايا وما في الصدور:

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ). وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ).

رابعاً: وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ).

خامساً: ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت.

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً ، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون ، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ).

سادساً: ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة.

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً).

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

سابعاً: وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى).

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً).

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً).

ثامناً: علمنا قليل بالنسبة لعلم الله.

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً).

٢- الآثار المترتبة من علمنا بهذه الصفة وهي : عموم علم الله بكل شيء .

أولاً : الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً.

ثانياً : اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر.

- **قال ابن القيم:** فإن قلت: فما السبيل إلى حفظ الخواطر ، قلت: أسباب عدة ، أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك ، وعلمه بتفصيل خواطرك ، والثاني: حياؤك منه ، والثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته.

ثالثاً : إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب.

رابعاً : ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: وجوب مراقبة الله، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه يعلم كل شيء، فسوف يراقب ربه، بلسانه وجنانه وأركانه، فبلسانه: لا ينطق بما حرم الله، وبجنانه: لا يعتقد بقلبه خلاف الحق، وبجوارحه: لا يستعملها في المحرمات، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام، ويستعمل اليد في البطش الحرام، ويستعمل الآذان في السماع الحرام.

خامساً : وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة، وأنه لن يضيع منها شيء .

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)) .

[الرعد : ١١] .

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (معقبات) صفة لموصوف محذوف أي: ملائكة معقبات.

- **قال الشوكاني:** والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه.

وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين. قال الزجاج: المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض.

- **قال ابن الجوزي** : وقال أكثر المفسرين : هم الحَفَظَة ، اثنان بالنهار واثنان بالليل ، إذا مضى فريق ، خلف بعده فريق ، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر.

أَيْ : لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ، حَرَسٌ بِاللَّيْلِ وَحَرَسٌ بِالنَّهَارِ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْحَادِثَاتِ، كَمَا يَتَعَاقَبُ مَلَائِكَةٌ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، فَاثْنَانِ عن اليمين والشمال يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ، واحد مِنْ وَرَائِهِ وَآخِرَ مَنْ قُدَّامِهِ، فَهُوَ بَيْنُ أربعة أملاك بالنهار، وأربعة أملاك بِاللَّيْلِ، بَدَلًا حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ .

كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ

بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّون) .

- وقوله (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) أي : حفظهم له واقع بأمر الله عز وجل .

قيل : يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب .

وقيل : أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به . قال الزجاج : المعنى : حفظهم إياه من أمر الله أي : مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله .

وقيل : أن «من» بمعنى الباء ، أي : يحفظونه بأمر الله .

وقيل : إن " من " بمعنى عن ، أي : يحفظونه عن أمر الله ، بمعنى من عند الله ، لا من عند أنفسهم .

(**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) بينَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْعَافِيَةِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، (من طاعة إلى معصية ومن جميل إلى قبيح، ومن صلاح إلى فساد) .

وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ لَا يَسْلُبُ قَوْمًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) .

وَقَدْ سُئِلَ ﷺ : «أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»

- **قال الرازي** : قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ) فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد.
- **قال ابن عطية** : ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله عز وجل إذا أنعم على قوم نعمة فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغيرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم ، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم ، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه ، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحل بهم عقوبته.
- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ** ...) تعليل ، أي هذا العقاب ؛ لأنهم غيروا وبدّلوا ، ونعمة الله على قريش الخصب والسَّعة ، والأمن والعافية (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ) .
- وهذه من سنن الله الاجتماعية ، أنه تعالى لا يبدل ما بقوم من عافية ونعمة ، وأمن وعزة ، الا إذا كفروا تلك النعم ، وارتكبوا المعاصي ، وفي الأثر " أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك : إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحولون منها إلى معصية الله ، إلا حول الله عنهم ما يحبون الى ما يكرهون .

قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ).

وقال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

عَلِيٍّ ﷺ: لَا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ .

(**وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ**) أي : وإذا أراد سبحانه بقوم سوءا من عذاب أو هلاك أو ما يشبههما بسبب إيثارهم الغي على الرشد، فلا راد لقضائه، ولا دافع لعذابه.

كَقَوْلِهِ (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) .

(**وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**) أي : من ناصر ينصرهم منه سبحانه ويرفع عنهم عقابه، ويلي أمورهم ويلتجئون إليه عند الشدائد.

فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله في شئون عباده، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصي وجحود النعمة، فإنه

سبحانه لا يعصم الناس من عذابه عاصم. ولا يدفعه دافع.

الفوائد :

١- كثرة الملائكة .

٢- من أعمال بعض الملائكة .

٣- أن الملائكة تعمل بأمر الله .

٤- أن النعم لا يزيلها الله إلا إذا غير العباد وكفروا النعمة ولم يقوموا بحقها من الشكر .

٥- خطر الذنوب والمعاصي .

٦- أنه لا راد لعقاب الله وعذابه إذا حل .

٧- تهديد من يبدل نعمة الله إلى الكفر بها .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)) .

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)) .

[الرعد : ١٢ ، ١٣] .

(**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**) يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ الْبَرْقَ، وَهُوَ مَا يُرَى مِنَ النُّورِ اللَّامِعِ سَاطِعًا مِنْ خِلَلِ السَّحَابِ. خَوْفاً وَطَمَعاً قَالَ قَتَادَةُ: خَوْفًا لِلْمُسَافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَشَقَّتَهُ، وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ اللَّهِ .

- **قال الخازن** : والبرق معروف ، وهو لمعان يظهر من خلال السحاب .

قال : وفي كونه خوفاً وطمعاً وجوه :

الأول : إن عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ، ويطمع في نزول المطر.

الثاني : أنه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ، ويطمع فيه من له في نزول المطر نفع كالزارع ونحوه.

الثالث : أن المطر يخاف منه إذا كان في غير مكانه وزمانه ، ويطمع فيه إذا كان في مكانه وزمانه فان من البلاد ما إذا أمطرت قحطت وإذا لم تمطر أخصبت (وينشئ السحاب الثقال) يعني المطر.

- جاء في (**التفسير الوسيط**) و الله تعالى وحده الذي يريكم بقدرته البرق، فيترتب على ذلك أن بعضكم يخاف ما ينجم عنه من صواعق. أو سيل مدمر، وبعضكم يطمع في الخير من ورائه، فقد يعقبه المطر النافع، والغيث المدرار.

فمن مظاهر حكمة الله تعالى في خلقه، أنه جعل البرق علامة إنذار وتبشير معا، لأنه بالإنذار والتبشير تعود النفوس إلى الحق، وتفيء إلى الرشد.

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُرِي خَلْقَهُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، قَالَ قَتَادَةُ : خَوْفًا لِلْمُسَافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَشَقَّتَهُ ، وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ اللَّهِ .

وَعَنِ الْحَسَنِ : الْخَوْفُ لِأَهْلِ الْبَحْرِ ، وَالطَّمَعُ لِأَهْلِ الْبَرِّ .

وَعَنِ الضَّحَّاكِ : الْخَوْفُ مِنَ الصَّوَاعِقِ ، وَالطَّمَعُ فِي الْغَيْثِ .

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : أَنَّ إِرَاءَتَهُ خَلْقَهُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا مِنْ آيَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) .

(**وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ**) أي : وهو سبحانه الذي ينشئ السحاب المثقل بالماء، فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته.

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ. حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ، فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ، فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون) .

(**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**) أي يسبح الرعد نفسه بحمد الله. أي : متلبسا بحمده، وليس هذا بمستبعد، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك.

وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد في ذلك، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له. وعناية به .

- **قال الماوردي** : قوله عز وجل (ويسبّح الرعد بحمده) وفي الرعد قولان :

أحدهما : أنه الصوت المسموع ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال (الرعد وعيد من الله فإذا سمعتموه فأمسكوا عن الذنوب) .

الثاني : أن الرعد ملك ، والصوت المسموع تسبيح .

- **قال الخازن** : أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب ، والصوت المسموع منه تسبيحه.

وأورد على هذا القول ما عطف عليه. وهو قوله (والملائكة من خيفته) وإذا كان المعطوف مغايراً للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره ، وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسماً لملك من الملائكة وإنما أفرده بالذكر تشريفاً له على غيره من الملائكة ، فهو كقوله : وملائكته وجبريل وميكال.

- جاء في سورة الإسراء قوله تعالى (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ) من شجر وحجر وجبل وجماد وغير ذلك .

وقد اختلف العلماء في معنى تسبيحها :

فقيل : تسبيحها دلالتها على صانعها .

وقيل : تسبيح حقيقي لا يسمعه البشر ولا يفهمه وهذا هو الصحيح لأدلة كثيرة :

قوله تعالى (واذكر عبدنا داود ذا الأيدي إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ...) .

- **قال القرطبي** : لو كان التسبيح تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود .

وقد جاءت أحاديث كثيرة أن الجمادات وغيرها تخاطب مخاطبة العاقل :

قال تعالى (وإن منها لما يهبط من خشية الله) .

وقال ﷺ (لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولت حجر ولا شجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) رواه ابن ماجه .

وقال ﷺ (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن) رواه مسلم .

وحديث الجذع الذي حن وصاح لما ترك النبي ﷺ الخطبة عليه وبدأ يخطب على منبر .

وقال ﷺ (إن أحداً جبل يحبنا ونحبه) متفق عليه .

فهذا القول هو الراجح ان كل شيء يسبح لله من جماد وغيره للأخبار الكثيرة في هذا الباب .

(وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أي لا تفهمون تسبيح هذه المخلوقات التي على غير لغتكم ، بل يحيط بها علام الغيوب .

- وتسبيح الله يعني: تنزيهه عن كل نقص وعيب، هذا هو التسبيح، سبحت الله يعني نزهته وبرأته من كل نقص وعيب، لأنه جل وعلا كامل الصفات، إذ ينتفى عنه جميع النقائص، وقوله (بحمد ربهم) الباء للمصاحبة، أي سبحوا الله تسبيحاً مقروناً بالحمد مصاحباً به.

والحمد هو: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

هذا معنى الحمد، حمدت الله يعني: اعتقدت أن له أوصافا كاملة، وذكرت بلساني ذلك، فإن كرر المدح صار ثناء، كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علي عبدي .

تنبيه :

- **قال القرطبي** : واختلف العلماء في الرعد ففي الترمذي عن ابن عباس قال (سألت اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله فقالوا فما هذا الصوت الذي نسمع قال زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر الله قالوا صدقت " الحديث بطوله .

وعلى هذا التفسير أكثر العلماء ، فالرعد اسم الصوت المسموع

- **قال البغوي** : أكثر المفسرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه .

ولعل مما يؤيد ما عليه عامة المفسرين والمحدثين :

ما أخرجه مسلم : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ. لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِى فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِى هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَه) .

فقوله في الحديث (سمعت في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك) ما يدل على ما عليه عامة المفسرين والمحدثين من أن الرعد ملك يزجر السحاب ، والله اعلم.

(**وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**) أي : ويسبح الملائكة- أيضاً- بحمد الله، خوفاً منه- تعالى- وإجلالاً لمقامه وذاته.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (والملائكة من خيفته) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله عز وجل ، وهو الأظهر.

قال ابن عباس : يخافون الله ، وليس كخوف ابن آدم ، لا يعرف أحدهم مَنْ على يمينه ومَنْ على يساره ، ولا يَشْغَله عن عبادة الله شيء.

والثاني : أنها ترجع إلى الرعد ، ذكره الماوردي.

- فمن عبادات الملائكة : التسبيح :

قال تعالى (:الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم) .

وقال تعالى (:وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم) .

وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع، لا في الليل، ولا في النهار (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُون) .

ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبِّحون في الحقيقة، وحق لهم أن يفخروا بذلك (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُون) .

وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر .

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال (سئل رسول الله ﷺ أي الذكر أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده) .

(**وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ**) الصواعق جمع صاعقة، وهي- كما يقول ابن جرير- كل أمر هائل رآه الرائي أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل .

والمراد بها هنا: النار النازلة من السماء.

أي ويرسل سبحانه الصواعق المهلكة فيصيب بها من يشاء إصابته من خلقه.

(**وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ**) أي : وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته ، وفي قدرته على البعث .

(**وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**) أي : وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال ، القادر على الانتقام ممن عصاه .

- **قال السعدي** : شديد الْمِحَالِ أي: شديد الحول والقوة فلا يريد شيئا إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء ولا يفوته هارب.

فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد وهو شديد القوة – فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

الفوائد :

١- حكمة الله في وجود البرق خوفاً وطمعاً .

٢-من آيات الله العظيمة إنشاء السحاب .

٣-أن كل شيء يسبح بحمد الله .

٤- وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص .

٥- مشروعية الإكثار من تسبيح الله .

٦- أن الكمال المطلق لله تعالى .

٧- أن الملائكة تسبح لله .

٨- فضل الخوف من الله .

٩- حكمة الله في إرسال الصواعق وإصابة من يشاء من عباده .

١٠- أن الله شديد الأخْذ والعذاب والنكال .

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ (١٤)) .

[الرعد : ١٤] .

(**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ**) أي : له وحده- سبحانه- الدعوة الحق المطابقة للواقع، لأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وهو الحقيق بالعبادة والالتجاء.

فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته، وفي هذه الإضافة إيذان بملابستها للحق، واختصاصها به، وأنها بمعزل عن الباطل.

ومعنى كونها له: أنه- سبحانه- شرعها وأمر بها.

- **قال الشوكاني** : قوله: «له دعوة الحق» إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة. أي : الدعوة الملابسة للحق، المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه.

وقيل: الحق هو الله تعالى والمعنى: أنه لله تعالى دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب.

وقيل: المراد بدعوة الحق هاهنا كلمة التوحيد والإخلاص والمعنى: لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له العبادة.

وقيل: دعوة الحق، دعاؤه سبحانه عند الخوف، فإنه لا يدعى فيه سواه، كما قال تعالى وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ.

- **قال السعدي** : أي لله وحده (دَعْوَةُ الْحَقِّ) وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة .
- ثم بين سبحانه حال من يعبد غيره :

(**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ**) ا الأصنام التي يعبدها هؤلاء المشركون من غير الله .

(**لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ**) فإنها لا تجيبهم إلى شيء يطلبونه منها .

- **قال الشوكاني** : والآلهة الذين يدعونهم -يعني الكفار- من دون الله عزّ وجلّ لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان .

(**إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ**) إلا كإجابة الماء لشخص بسط كفيه إليه من بعيد، طالباً منه أن يبلغ فمه وما الماء

ببالغ فم هذا الشخص الأحمق، لأن الماء لا يحس ولا يسمع نداء من يناديه.

- **قال الشوكاني** : كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ، ولا يدري أنه طلب منه أن يبلغ فاه . ولهذا قال (وَمَا هُوَ) أي : الماء (بِبَالِغِهِ) أي : ببالغ فيه . قال الزجاج : إلاّ كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه ، والماء لا يستجيب ، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه ، وما الماء ببالغه .

وقيل : المعنى : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه . وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء .

- **وقال الفراء** : إن المراد بالماء هنا ماء البئر ، لأنها معدن للماء ، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء ، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام . (فتح القدير) .

والمقصود من الجملة الكريمة نفى استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيا قاطعاً ، حيث شبه سبحانه حال هذه الآلهة الباطلة عند ما يطلب المشركون منها ما هم في حاجة إليه، بحال إنسان عطشان ولكنه غبي أحمق لأنه يمد يده إلى الماء طالبا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه. فلا يصل إليه شيء من الماء لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه.

- ونكر شيئاً في قوله لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ للتحقير. والمراد أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة حتى ولو كانت شيئا تافها.
- **قال السعدي** : وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة ، فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) .
- **قال القرطبي**: وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه وفساد توهمه. قاله ابن عباس.

الثالث: انه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه، فلا يجد في كفه شيئا منه .

وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه، بالقبض على الماء .

- **قال ابن كثير** : ومعنى هذا الكلام أن الَّذِي يَبْسُطُ يَدَهُ إِلَى الْمَاءِ إِمَّا قَابِضًا وَإِمَّا مُتَنَاوِلًا لَهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى فِيهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَحَلًّا لِلشُّرْبِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ وَمَا دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلال .

(**وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ**) أي : وما عبادة الكافرين للأصنام، والتجاؤهم إليها في طلب الحاجات، إلا في ضياع وخسران لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها.

الفوائد :

١- في الآية نفي النفع والقدرة عن المعبودين دون الله ، وأن الأصنام لا تملك لعبّادها نفعاً ولا ضراً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن جلب النفع ودفع الضر من خصائص الله عز وجل .

أ-قال تعالى (وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ) .

ب- قال تعالى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) . (قطمير) القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمر .

ومعنى الآية : يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه . من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها . مما يدل على عجزهم وضعفهم ، وأنهم قد

انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي :

الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على الاستجابة .

فمتى لم توجد هذه الشروط تامّة بطلت دعوته ، فكيف إذا عدمت بالكلية .

فنفى عنهم الملك بقوله (ما يملكون من قطمير) .

أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير ، كما قال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) .

وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض) .

فمن كان هذا حاله ، فكيف يُدعى من دون الله .

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) يعني الآلهة التي تدعونها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات ، أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له ، أو جماد .

ولأنه قد يقول المشرك : هذا في الأصنام ، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون .

فنفى سبحانه ذلك بقوله : (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أي لا يقدرون على ما تطلبونه منكم .

ج- وقال تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) .

- **قال الشيخ بن باز** رحمه الله : هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله ، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف :

الأولى : عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة .

الثانية : أنهم غافلون عن دعائهم ، إما لأنهم أموات ، أو جماد لا إحساس لهم ، أو حي مشغول ، أو ملك لا علم له بمن دعاه .

الثالثة : أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة .

الرابعة : أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها) . أ . هـ

(وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)) .

[الرعد : ١٥] .

(**وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : ولله وحده يخضع وينقاد أهل السماوات وأهل الأرض .

فالمراد بالسجود : الانقياد والخضوع لله .

وقد وقع خلاف بين العلماء في معنى السجود هنا :

القول الأول : أن المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض .

وعلى هذا الوجه ففيه وجهان :

أحدهما : أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون ، فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعاً بسهولة ونشاط ، ومن المسلمين من يسجد لله كرهاً لصعوبة ذلك عليه مع أنه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى.

والثاني : أن اللفظ عام والمراد منه أيضاً العام وعلى هذا ففي الآية إشكال ، لأنه ليس كل من في السموات والأرض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله ، والمؤمنون من الجن والإنس يسجدون لله تعالى ، وأما الكافرون فلا يسجدون.

الجواب عنه من وجهين : الأول : أن المراد من قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السموات والأرض) أي ويجب على كل من في السموات والأرض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول.

والثاني : وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية ، وكل من في السموات ومن في الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال : (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله) .

القول الثاني : أن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع وكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى ، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل .

وهذا الصحيح .

ومن الأقوال التي قيلت :

قيل : سجود من السموات والأرض من العام المخصوص، فالمؤمنون يسجدون لله سجوداً حقيقياً وهو وضع الجبهة على الأرض، يفعلون ذلك طوعاً، والكفار يسجدون كَرهاً ومنهم المنافقون .

واختار هذا القول ابن جرير، والواحدي .

قال الواحدي : يعني الملائكة والمؤمنين، وكرها يعني من أُكْرِهَ على السجود من الكافرين والمنافقين، هذا قول المفسرين.

وقيل : الآية في المؤمنين، فبعضهم يسجد طوعاً لخفة امتثال أوامر الشرع عليه، وبعضهم يسجد كرهاً لثقل مشقة التكليف عليه.

وقيل : هو عام لسائر أنواع العقلاء والمراد ب(يسجد) يجب أن يسجد لكن عبر عن الوجوب بالوقوع مبالغة.

والراجح كما تقدم أن المراد بالسجود الخضوع لله والانقياد .

قال أبو حيان : الذي يظهر أن مساق الآية إنما هو أن العالم كله مقهور لله تعالى خاضع لما أراد سبحانه منه مقصور على مشيئته لا يكون منه إلا ما قدر جل وعلا فالذين تعبدونهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً ، ويدل على هذا المعنى تشريك الظلال في السجود وهي ليست أشخاصاً يتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة ولكنها داخلة تحت مشيئته تعالى يصرفها سبحانه حسبما أراد .

قال الشيخ ابن عثيمين : قال الله تعالى (ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً) والسجود هنا السجود القدري فكل أحد خاضع لقدر الله ما أحد يستطيع أن يغالب الله عز وجل أين المفر ... فالسجود الشرعي كثير من الناس حق عليهم العذاب فلم يسجدوا ، على أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كلها يسجد لله عز وجل ، لكن الكفرة من بني آدم ومن الجن لا يسجدون لله تعالى إلا السجود الكوني القدري .

(**طَوْعًا وَكَرْهًا**) أي: أن جميعهم يسجدون لله ، وينقادون لعظمته ، حال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والانقياد، وحال كونهم كارهين وغير راضين به، لأنهم لا يستطيعون الخروج على حكمه لا في الإيجاد ولا في الإعدام ولا في الصحة ولا في المرض، ولا في الغنى ولا في الفقر ... فهم خاضعون لأمره شاءوا أم أبوا.

ويستوي في هذا الخضوع المؤمن والكافر، إلا أن المؤمن خاضع عن طواعية بذاته وبظاهره وبباطنه لله تعالى ، أما الكافر فهو خاضع لله تعالى بذاته، ومتمرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره .

قال الحسن: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرْهاً أي في حالة الفزع والاضطرار .

قال ابن تيمية : ... وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ انْقِيَادُهُمْ لِحُكْمِهِ الْقَدَرِيِّ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ ، كَاسْتِسْلَامِهِمْ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَانْقِيَادِهِمْ لِمَا يَكْرَهُونَ مِنْ أَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ فَكُلُّ أَحَدٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ انْقِيَادِهِ لِحُكْمِهِ الْقَدَرِيِّ وَالشَّرْعِي .

وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل : أن السجود هاهنا الخضوع لتدبير الله وتصريفه من صحة وسقم وغيرهما ، طوعاً وكرهاً ، أي : ينقادون على ما أحبوا أو كرهوا لا حيلة لهم في ذلك .

(**وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**) أي : وتسجد ظلالُهم أيضاً لله في أول النار وأواخره، والغرضُ الإخبار عن عظمة الله تعالى

وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميّن، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى .

– **قال الشنقيطي** : (وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) **فَقِيلَ** : سُجُودُهَا حَقِيقِيٌّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ لَهَا إِدْرَاكًا تُدْرِكُ بِهِ وَتَسْجُدُ لِلَّهِ سُجُودًا حَقِيقِيًّا ، **وَقِيلَ** : سُجُودُهَا مَيْلُهَا بِقُدْرَةِ اللَّهِ أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَى جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، وَآخِرَهُ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ ، وَادَّعَى مَنْ قَالَ هَذَا أَنَّ الظِّلَّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ خَيَالٌ فَلَا يُمْكِنُ مِنْهُ الْإِدْرَاكُ .

وَنَحْنُ نَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ لِلظِّلِّ إِدْرَاكًا يَسْجُدُ بِهِ لِلَّهِ تَعَالَى سُجُودًا حَقِيقِيًّا .

– **قال ابن كثير** : الْغُدُوِّ أَيِ الْبُكُور ، وَالْآصالِ وَهُوَ جَمْعُ أصيل، وهو آخر النهار، كقوله تَعَالَى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ) .

– وقال ابن عاشور : والغدُوّ : الزمان الذي يغدو فيه الناس ، أي يخرجون إلى حوائجهم ، والآصال : جمع أصيل ، وهو وقت اصفرار الشمس في آخر المساء ، والمقصود من ذكرهما استيعاب أجزاء أزمنة الظل.

وقال رحمه الله : وهذه الآية موضع سجود من سجود القرآن ، وهي السجدة الثانية في ترتيب المصحف باتفاق الفقهاء.

ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد ما يسجد لله طوعاً بإيقاعه السجود ، وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى.

الفوائد :

١- عظمة الله تعالى .

٢- كل من في السماوات والأرض خاضع لله تعالى اختياراً أو كرهاً .

٣- لا أحد يستطيع أن يخرج عن ملك الله وقدرته .

٤- وجوب عبادة الله وتعظيمه حيث يسجد له كل شيء .

٥- فضل السجود لله .

٦- كلما كان الإنسان أكثر خضوعاً لله وطاعة كان أعلى منزلة عند الله .

(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)) .

[الرعد : ١٦] .

(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي : قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء المشركين، من رب هذه الأجرام العظيمة العلوية والسفلية؟

(قُلِ اللَّهُ) أي : قل لهم تقريعاً وتوبيخاً : الله خالقهما وموجدهما على غير مثال سابق .

– قال الرازي : ولما كان هذا الجواب جواباً يقر به المسؤول ويعترف به ولا ينكره أمره صلى الله عليه وسلم أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه ألبتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات .

– وقال ابن الجوزي : إنما جاء السؤال والجواب من جهة ، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء ، فلما لم ينكروا ، كان كأنهم أجابوا.

– وقال أبو حيان : ولما كان السؤال عن أمر واضح لا يمكن أن يدفع منه أحد ، كان جوابه من السائل.

فكان السبق إليه أفصح في الاحتجاج إليهم وأسرع في قطعهم في انتظار الجواب منهم ، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقعت المبادرة إليه ، كما قال تعالى (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله) .

(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا) أمر ثالث منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم لإفحامهم وتبكيتهم ، فالهمزة للاستفهام التوبيخي .

والمعنى : أعلمتم حق العلم أن الله- تعالى- هو الخالق للسموات والأرض، فتركتم عبادته- سبحانه- واتخذتم من دونه «أولياء» أي نصراء عاجزين، لا يملكون لأنفسهم- فضلا عن أن يملكوا لغيرهم- نفعاً يجلبونه لها، ولا ضراً يدفعونه عنها.

والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة، فإنهم إن أحسنوا التفكير في هؤلاء الأولياء، أيقنوا أنهم أحقر من أن يلتفت

إليهم، فضلا عن أن يطلبوا منهم شيئاً .

(**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**) أي : قل لهم- أيضاً- أيها الرسول الكريم: كما أنه لا يستوي في عرف كل عاقل الأعمى والبصير، والظلمات والنور، فكذلك لا يستوي الكفر والإيمان، فإن الكفر انطماس في البصيرة، وظلمات في القلب، أما الإيمان فهو نور في القلب وإشراق في النفس.

فالمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن، كما أن المراد بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان.

وعبر القرآن الكريم في جانب الظلمات بصيغة الجمع، وفي جانب النور بصيغة الإفراد، لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور. وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته.

أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها، فهناك ظلمة الليل، وهناك ظلمة السجون، وهناك ظلمة القبور، وهناك ظلمة العقول التي كان من نتائجها تعدد أنواع الكفر والضلال، كما هو الحال في شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين انحرفوا عن طريق الحق.

– **قال الماوردي** : وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر كالأعمى والبصير، والهدى والضلالة كالظلمات والنور، فالمؤمن في هُداه كالبصير يمشي في النور، والكافر في ضلاله كالأعمى يمشي في الظلمات، وهما لا يستويان، فكذلك المؤمن والكافر لا يستويان، وهذا من أصح مثل ضربه الله تعالى وأوضح تشبيه.

(**أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**) أم هنا بمعنى بل، والاستفهام للإنكار.

هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم ، أي : أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً خلقوا مخلوقاتٍ كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله مِن خلق آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ثم بعد هذا كلّه يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين

فالجملة الكريمة تنعى عليهم جهلهم. حيث عبدوا من دون الله مخلوقاً مثلهم، وتنفي أي عذر يعتذرون به يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

– **قال ابن الجوزي** : (أم جعلوا لله شركاء) قال ابن الأنباري : معناه : أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء؟ وهذا استفهام إنكار ، والمعنى : ليس الأمر على هذا ، بل إذا فكَّروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق ، وغيره لا يخلق

(**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**) أي : الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية .

– **قال الشنقيطي** : أشار تعالى : في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده لأنه هو الخالق ولا يستحق من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود لأن المقصود من قوله (أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ) إنكار ذلك وأنه هو الخالق وحده بدليل قوله بعده (قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) أي خالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده .

ويبين هذا المعنى في آيات كثيرة :

كقوله (واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقوله (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقوله (هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ) إلى غير ذلك من الآيات .

لأن المخلوق محتاج إلى خالقه فهو عبد مربوب مثلك يجب عليه أن يعبد من خلقه وحده كما يجب عليك ذلك فأنتما سواء بالنسبة إلى وجوب عبادة الخالق وحده لا شريك له.

– قال بعض العلماء : وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز مِنَ العَدَمِ إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدمًا هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يَعْبُدَ مَنْ خَلَقَه.

قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وكما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

– قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات ، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم ، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

(**وَهُوَ الْوَاحِدُ**) أي : هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك.

كما قال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

وقال تعالى (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

وقال تعالى (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).

ففي هذه الآية: إثبات وحدانية الله تعالى، الذي لا إله إلا هو، وحده لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الذي ليس له ند ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل قال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) وقال (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

وقد بيّن سبحانه بأنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة فقال (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

وكفّر وضل من اتخذ إلهاً سواه أو معه، قال تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) وقال سبحانه (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ).

- وكيف يعبد غيره، والله سبحانه قد تفرد بالخلق والإيجاد والرزق والإمداد والبسط والقبض، والرفع والخفض، قال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ).

(**الْقَهَّارُ**) **قال ابن كثير**: هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره.

– **قال السعدي**: القهار لجميع العالم العلوي والسفلي ، القهار لكل شيء ، الذي خضعت له المخلوقات ، وذلت لعزته وقوته وكمال قدرته.

- **وقال الخطابي**: هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلهم بالموت.

- من آثار هذا الاسم:

أولاً: أنه لا يكون إلا واحداً لا كفؤ له ، وإلا لم يكن قهاراً ، قال ابن القيم: لا يكون القهار إلا واحداً ، إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق ، وإن قهره لم يكن كفؤاً ، فكان القهار واحداً ، ولهذا اقترن اسمه سبحانه (القهار) باسمه سبحانه (الواحد) في كل الآيات ، قال تعالى (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

ثانياً: التعلق بالله وحده والتوكل عليه سبحانه ، وقطع العلائق بالأسباب المقهورة مع فعلها ، لأن حقيقة التوكل هي تمام الاعتماد على الله تعالى مع تمام الثقة بكفايته وإعانته ، وهذا لا يرصف إلا للواحد القهار.

ثالثاً: تعظيم الله –عز وجل– والخوف منه وحده وسقوط الخوف من المخاليق الضعاف المقهورين المغلوبين من القلب ، سواء كان ذلك خوفاً على الرزق أو خوفاً على الأجل.

الفوائد :

١– إثبات الربوبية لله تعالى .

٢– أن الكفار يقران بأن الله رب كل شيء .

٣– التوبيخ بالمشركين حيث عبدوا من لا ينفع ولا يضر .

٤– وجوب عبادة الله .

٥– أن الذي يخلق وينفع ويضر هو المستحق للعبادة .

٦–أن الخالق هو الله .

٧– فكما أن الخالق هو الله فيجب أن تكون العبادة لله .

٨– من لا يخلق لا يستحق أن يعبد .

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧)) .

[الرعد : ١٧] .

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء) أنزل الله تعالى من السماء ماء كثيرا، ومطرا مدراراً .

(فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) أي : فسالت المياه في الأودية بسبب هذا الإنزال، بمقدارها الذي حدده الله– تعالى– واقتضته حكمته في نفع الناس ، أو بمقدارها قلة وكثرة، بحسب صغر الأودية وكبرها، واتساعها وضيقها .

والأودية: جمع واد وهو الموضع المتسع الممتد من الأرض الذي يسيل فيه الماء بكثرة.

والسيل: الماء الجاري في تلك الأودية.

– قال ابن كثير : أَيْ أَخَذَ كُلُّ وَادٍ بِحَسْبِهِ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا من الماء، وهذا صغير وسع بِقَدْرِهِ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُلُوبِ وَتَفَاوُتِهَا، فَمِنْهَا ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لَا يَتَّسِعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ بَلْ يَضِيقُ عَنْهَا .

– وقال الرازي : (سَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) أي : من الماء ، فإن صغر الوادي قلّ الماء ، وإن اتسع الوادي كثر الماء.

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا) أي : فحمل الماء السائل في الأودية بكثرة وقوة، غثاء عالياً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه، لا نفع فيه ولا فائدة منه.

الزبد: هو الغثاء الذي يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه أو ما يعلو القدر عند الغليان ويسمى بالرغوة والوضر والخبث لعدم فائدته ، ورابياً : من الربو بمعنى العلو والارتفاع.

– **قال البقاعي** : والزبد الرغوة التي تعلو الماء ، والاحتمال : رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له .

– **وقال ابن عطية** : والزبد ما يحمله السيل من غثاء ونحوه .

– **قال ابن كثير** : (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً) أَيْ فَجَاءَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ زَبَدٌ عَالٍ عَلَيْهِ، هَذَا مَثَلٌ.

وإلى هنا يكون قد انتهى المثل الأول : حيث شبه سبحانه الحق وأهله في الثبات والنفع بالماء الصافي الذي ينزل من السماء فتمتلئ به الأودية ويبقى محل انتفاع الناس به إلى الوقت المحدد في علم الله تعالى .

وشبه الباطل وشيعته في الاضمحلال وعدم النفع، بزبد السيل المنتفخ المرتفع فوق سطح الماء، فإنه مهما علا وارتفع فإنه سرعان ما يضمحل ويفنى وينسلخ عن المنفعة والفائدة.

–**قال الطبري** : وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالإِيمَانِ بِهِ وَالْكُفْرِ ، يَقُولُ تَعَالَى : مَثَلُ الْحَقِّ فِي ثَبَاتِهِ وَالْبَاطِلِ فِي اضْمِحْلاَلِهِ مَثَلُ مَاءٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) يَقُولُ : فَاحْتَمَلَتْهُ الأَوْدِيَةُ بِمِلْئِهَا ، الْكَبِيرُ بِكِبَرِهِ ، وَالصَّغِيرُ بِصِغَرِهِ (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا) يَقُولُ : فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ الَّذِي حَدَثَ عَنْ ذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ زَبَدًا عَالِيًا فَوْقَ السَّيْلِ ، فَهَذَا أَحَدُ مَثَلَيِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَالْحَقُّ هُوَ الْمَاءُ الْبَاقِي الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَالزَّبَدُ الَّذِي لاَ يُنْتَفَعُ بِهِ هُوَ الْبَاطِلُ.

(**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ**) أي : وشبيه بالمثل السابق في خروج الزبد والخبث وطرحه بعيداً عن الأشياء النافعة ، ما توقدون عليه النار من المعادن والجواهر ، لكي تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلي والأمتعة المتنوعة، فإنكم في مثل هذه الحالة، تبقون على النقي النافع منها، وتطرحون الزبد والخبث الذي يلفظه الكير، والذي هو مثل زبد السيل في عدم النفع.

فقد شبه سبحانه في هذا المثل الثاني الحق وأهله في البقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية، وشبه الباطل وحزبه في الفناء وعدم النفع بخبث الحديد الذي يطرحه كير الحداد، ويهمله الناس.

الإيقاد وهو جعل الحطب وما يشبهه في النار ليزيد اشتعالها.

– **قال ابن الجوزي** : يعني بقوله (ومما توقدون عليه) ما يدخل إلى النار فيُذاب من الجواهر (ابتغاء حِلية) يعني : الذهب والفضة (أو متاع) يعني : الحديد والصُّفْر والنحاس والرصاص تُتخذ منه الأواني والأشياء التي يُنتفع بها (زَبَدٌ مثله) أي : له زَبَد إذا أُذيب مثل زَبَد السَّيل ، فهذا مثل آخر.

(**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ**) أي : مثل ذلك البيان البديع، يضرب الله الأمثلة للحق وللباطل إذا اجتمعا بأن يبين بأنه لا ثبات للباطل– مهما علا وانتفخ– مع وجود الحق، كما أنه لا ثبات للزبد مع الماء الصافي، ولا مع المعادن النقية.

(**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء**) (فأما الزبد) أي : الذي هو مثل للباطل المطلق (فيذهب) متعلقاً بالأشجار وجوانب الأودية لأنه يطفو بخفته ويعلق بالأشياء الكثيفة بكثافته .

(**جفاء**) قال أبو حيان : أي مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له ؛ وقال ابن الأنباري : متفرقاً ، من جفأت الريح الغيم – إذا قطعته ، وجفأت الرجل : صرعته .

فهذا مثل الباطل من الشكوك والشبه وما أثاره أهل العناد ، لا بقاء له وإن جال جولة – يمتحن الله بها عباده ليظهر الثابت من المزلزل – ثم ينمحق سريعاً .

(**وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**) أي : وأما ما ينتفع الناس به من الماء الصافي ، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض .

– قال الآلوسي : (وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس) أي من الماء الصافي الخالص من الغثاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث (فَيَمْكُثُ) يبقى (فِي الأرض) أما الماء فيبقى بعضه في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون ونحوها ، وأما الجوهر المعدني فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة .

(**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ**) أي : مثل هذين المثلين السابقين يبيّن الله الأمثال للحق والباطل ، والهدى والضلال ، ليعتبر الناس ويتعظوا .

كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُون) .

وقال سُبحانه (ولَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون) .

وقال عزَّ وجلل (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

– قال الخازن : قال أهل التفسير والمعاني : هذا مثل ضربه الله للحق والباطل ، فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال ، فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به ، وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر ، وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل ، فالباطل وإن علا في وقت فإنه يذهب هو وأهله ، والحق يظهر هو وأهله.

– قال البغوي : جعل الله تعالى هذا مثلا للحق والباطل، أي: أَنَّ الباطل كالزبد يذهب ويضيع، والحقّ كالماء والفلز يبقى في القلوب. وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يُرى في الصورة شيئاً وليس له حقيقة، وأمرُ المؤمنين كالماءِ المستقرِّ في مكانه له البقاءُ والثبات.

الفوائد :

١– الصراع بين الحق والباطل سنة الله الدائمة .

٢– تشجيع لأهل الحق بأن الغلبة والنصر لهم .

٣– أن الباطل في بعض الأحوال قد يعلو لكنه يضمحلّ سريعاً كاضمحلال الزّبد والخَبَث.

٤–لا ثبات للباطل – مهما علا وانتفخ – مع وجود الحق ، كما أنه لا ثبات للزبد مع الماء الصافي ، ولا مع المعادن النقية.

٥– أنّ الماء يمكث في الأرض وينفذ في أعماقها ويبقى عبر القرون حتى ينتفع به الناس من خلال استخراجه، فهكذا الحقّ فهو ثابت لا يزول، ودائم لا يضمحل، على طرف النقيض من الباطل، فللحق دولة وللباطل جولة.

٦– أنّ الباطل ينجلي بأشكال مختلفة، كما أنّ الزبد يطفو فوق الماء والمعدن المذاب بأنحاء مختلفة، فالحقّ واحد وله وجه واحد، أمّا الباطل فله وجوه مختلفة حسب بعده من الحقّ وتضادّه معه.

٦– أي عمل لغير الله لا يبقى ولا ينفع .

٧– الحرص على إخلاص العمل لله حتى يكون نافعاً .

٨– ما كان لله يبقى وما كان لغير الله يفنى .

٩– أن العاقبة للمؤمنين .

١٠– ضرب الأمثال للتوضيح .

١١– الحرص على معرفة الأمثال في القرآن وفهمها .

(الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)) .

[الرعد : ١٨] .

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال:

(**لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ**) أي: أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم .

(**الحسنى**) وهو الجزاء الحسن ، قال ابن عباس وجمهور المفسرين : يعني الجنة. (تفسير الخازن) .

كما قال تعالى مخبرًا عن ذي القرنين أنه قال (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) .

وقال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) .

قال ابن عطية : (الذين استجابوا) هم المؤمنون الذين دعاهم الله عز وجل على لسان رسوله فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه ، و (الحسنى) هي الجنة وكل ما يختص به المؤمنون من نعم الله عز وجل .

قال ابن الجوزي : وفي الحُسنى ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الجنة ، قاله ابن عباس ، والجمهور.

والثاني : أنها الحياة والرزق ، قاله مجاهد.

والثالث : كل خير من الجنة فما دونها ، قاله أبو عبيدة.

(**وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ**) بعد ما ضرب لهم الأمثال وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة .

(**لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**) من ذهب وفضة وغيرها .

(**وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ**) أي: في الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً .

قال الرازي : والافتداء جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر .

كما قال تعالى في سورة آل عمران (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) .

وقال تعالى (وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ).

وقال تعالى (لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ).

وقال تعالى (لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ).

وقال (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وقال تعالى (وإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا).

وقال تعالى (فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ) .

(**أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ**) أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب .

قال الحسن : يحاسبون بذنوبهم كلها ، لا يُغفر لهم منها شيء .

قال السعدي : وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم وقالوا (يا ويلتنا مال لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

(**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**) أي : مرجعهم إلى جهنم وهي نار الخلد ، الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجيع، والنار الحامية والزقوم والزمهرير، والضريع وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب .

(**وَبِئْسَ الْمِهَادُ**) أي : بئس هذا المستقر والفراش الممهد لهم في النار .

الفوائد :

١- فضل الاستجابة لله تعالى .

٢- أن من استجاب لله فأطاعه واتبع رسوله فله الجنة .

٣- وجوب الاستجابة لله ولرسوله .

٤- أن يوم القيامة لا ينفع مال ولا بنون .

٥- شدة عذاب يوم القيامة على الكافرين ، حيث يتمنى الافتداء بكل شيء .

٦- تهديد الكفار بشدة حسابهم .

٧- أن حساب المؤمن ليس بشديد .

٨- إثبات الحساب يوم القيامة ، وأن حساب الكافر يختلف عن حساب المؤمن .

٩- أن مأوى الكفار النار .

(**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (١٩)**) .

[الرعد : ١٩] .

(**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**) المراد بالأعمى هنا: الكافر الذي انطمست بصيرته، فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل.

والاستفهام للإنكار والاستبعاد.

المعنى: أفمن يعلم ان ما أنزل إليك- أيها الرسول الكريم- من وحي هو الحق الذي يهدى للتي هي أقوم، كمن هو أعمى القلب: مطموس البصيرة؟؟

فالآية الكريمة تنفى بأبلغ أسلوب، مساواة الذين علموا الحق فاتبعوه، بمن جهلوه وأعرضوا عنه، وصموا آذانهم عن سماعه.

قال ابن كثير : يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي (أُنزِلَ إِلَيْكَ) يا محمد (مِنْ رَبِّكَ) هوَ (الحق) أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر ، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل .

كما قال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً) أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الطلب ، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه .

كما قال تعالى (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

وقال في هذه الآية الكريمة (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) أي: أفهذا كهذا ؟ لا استواء .

وقال السعدي : يقول تعالى: مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) ففهم ذلك وعمل به. (كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) لا يعلم الحق ولا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر أي الفريقين أحسن حالا وخير مآلا فيؤثر طريقها ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره.

وقال الخازن : وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد ، وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة

(**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**) أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

والألباب: جمع لب وهو الخالص من كل شيء.

– ثم مدح– سبحانه– أصحاب هذه العقول السليمة، بجملة من الخصال الكريمة في الآية التالية .

الفوائد :

١– مدح عظيم لمن آمن بالله وبرسوله .

٢– ذم لمن لم يؤمن .

٣– لا يستوي أبداً من عرف الحق واتبعه بمن عرف الحق وأعرض عنه .

٤– وجوب الإيمان بالقرآن العظيم .

٥– إثبات علو الله تعالى .

٦– أن القرآن منزل غير مخلوق .

٧– ذم عمى البصيرة .

٨– فضل العقل الذي يتأمل ويتدبر ويعلم .

(**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)**) .

[الرعد : ٢٠– ٢٤] .

(**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ**) أي : بجميع عهود الله وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيدة ، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي. (تفسير ابن عطية) .

قال القرطبي : قوله تعالى (الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله) هذا من صفة ذوي الألباب ، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد اسم للجنس ؛ أي بجميع عهود الله ، وهي أوامره ونواهيه التي وصّى بها عَبيده ؛ ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميع الفروض ، وتجنبُ جميع المعاصي.

والوفاء بالعهد : أن يحقّق المرء ما عاهد على أن يعمله.

(**وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ**) تعميم بعد تخصيص، لتشمل عهودهم مع الله– تعالى– ومع غيره من عباده.

قال أبو حيان : الظاهر أن هذه الجملة تأكيد للتي قبلها لأن العهد هو الميثاق ويلزم من إيفاء العهد انتفاء نقضه .

وقال ابن عطية : المراد بالجملة الأولى يوفون بجميع عهود الله تعالى وهي أوامره ونواهيه التي وصى الله تعالى بها عبيده ويدخل في ذلك التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي ، والمراد بالجملة الثانية أنهم إذا عقدوا في طاعة الله تعالى عهداً لم ينقضوه .

قال ابن كثير : وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

(**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ**) أي : أن من صفات أولى الألباب- أيضاً- أنهم يصلون كل ما أمر الله تعالى بوصله كصلة الأرحام، وإفشاء السلام، وإعانة المحتاج، والإحسان إلى الجار.

قال ابن كثير : من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف .

وقال القرطبي : ظاهر في صلة الأرحام ، وهو قول قَتَادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات.

وقال الشوكاني : ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولاً أوّلياً ، وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك .

- في هذ فضل صلة الأرحام :

فهي سبب في زيادة العمر .

عن أَنَس بْن مَالِك أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) متفق عليه .

وقال ﷺ (صلة الرحم ، وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار) رواه أحمد .

وعند الترمذي قال ﷺ (تعلَّموا من أنسابِكم ما تصِلُون به أرحامَكم؛ فإن صِلَة الرَّحِم محبَّةٌ في الأهل، مثْرَاةٌ في المال، منسَأةٌ في الأثَر) .

ومن وصلها وصله الله .

كما في الحديث: (من وصلني وصله الله) .

وهي من أسباب دخول الجنة .

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ فَقَالَ الْقَوْمُ مَالَهُ مَالَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرَبٌ مَالَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ ذَرْهَا قَالَ كَأَنَّهُ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ) متفق عليه .

وقال ﷺ (يا أيها الناس أفشوا السلام أطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) رواه الترمذي .

أن مما جاء به النبي ﷺ هو الدعوة إلى صلة الرحم .

كما جاء في قصة هرقل ، أن هرقل قال لأبي سفيان : فماذا يأمركم به ؟ قال : يقول (اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة) متفق عليه .

صلة الرحم من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر .

قال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه) .

وصلة الرحم فيها الاقتداء بالنبي ﷺ .

وفي قصة بدايةِ الوحي لما رجع الرسول ﷺ خائفاً قالت له زوجته خديجة (كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم) .

وأفضل الصدقة الصدقة على الأرحام .

قال ﷺ (أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح) رواه ابن خزيمة .

وصلة الرحم من أفضل الطاعات .

عن عُقْبَة بن عامر قال : قلت يَا رَسُولَ اللهِ ، أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الأَعْمَالِ . فَقَالَ (يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَك) رواه حمد .

وصلة الرحم طاعة لله .

قال تعالى (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) .

عاشراً : شيوع المحبة والألفة بين الأقارب .

فبسببها تشيع المحبة، وبهذا يصغو عيشهم وتكثر مسراتهم .

(**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**) خشية تحملهم على فعل ما وجب ، واجتناب ما لا يحلّ .

قال السعدي : أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

قال الخازن : والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه .

وفي هذا فضل خشية الله :

قال تعالى (إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم).

وقال تعالى (إن الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير).

وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ. لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد).

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة).

وخشية الله في الغيب والشهادة من المنجيات، كما قال ﷺ (ثلاث منجيات، وذكر منها: خشية الله في السر والعلن).

وقال الشافعي: أعز ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف.

– فضائل خشية الله في الخلوة.

لهم مغفرة وأجر كبير.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

(بالغيب) أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس كما جاء في الحديث عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: .. وذكر منهم: ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه. وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ).

ويحتمل (يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) أي: أنهم يخشون ربهم وهم لم يروه كما في الحديث (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.

أن الله مدح من يخافه بالغيب.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ).

هم أهل من ينتفع الإنذار.

قال تعالى (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ).

قال السعدي: أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

من علامات المتقين.

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ).

– قال السعدي (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم (وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُون) أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

من أسباب النجاة.

قال ﷺ (ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى).

وقال المناوي: إن خشية الله رأس كل خير، والشأن في الخشية في الغيب لمدحه تعالى من يخافه بالغيب.

أن النبي ﷺ كان يدعو ربه بذلك.

ففي حديث عمار. (أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: .. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

قال ابن رجب: ... فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس وقد مدح الله من يخافه بالغيب ... ثم ذكر الآيات المتقدمة.

من الذين يظلهم الله في ظله.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) متفق عليه.

وخشية الله في السر والعلانية هي الوصية النبي ﷺ .

فقد قال ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت) أي: في السر والعلانية، حيث يراك الناس وحيث لا يرونك، في الليل والنهار، في الغيب والشهادة، في كل وقت وعلى كل حال.

لقد كان النبي ﷺ أشد الناس خشية لله.

فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها).

وقال عبد الله بن مسعود: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا.

قال ابن رجب : ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً.

فأما الأول: فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ).

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وأما الثاني: فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله).

(**وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ**) وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش الحساب عذب ، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

(**وَالَّذِينَ صَبَرُواْ**) على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

(**ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ**) لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

– وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: «والذين صبروا» فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف «ابتغاء وجه ربهم» لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل. ولا لئلا يعاب بالجزع، ولئلا يشمت به الأعداء، كقوله:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتزعزع

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مرد فيه للفائت.

قال الرازي : ... ثم إن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه :

أحدها : أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.

وثانيها : أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع.

وثالثها : أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء.

ورابعها : أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع فالإنسان إذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلاً في كمال النفس وسعادة القلب .

– وفي هذا أهمية الإخلاص في جميع الأعمال ، فإن العمل يعظم ويكبر بالإخلاص .

قال ابن القيم : وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَكُونُ لِلَّهِ فَبَرَكَتُهُ مَنْزُوعَةٌ ، فَإِنَّ الرَّبَّ هُوَ الَّذِي يُبَارِكُ وَحْدَهُ ، وَالْبَرَكَةُ كُلُّهَا مِنْهُ ، وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مُبَارَكٌ . (الجواب الكافي / ٨٤) .

وقال الفُضَيل بن عِياض رحمه الله (خيرُ العمل أخْفاه، أمْنَعُه من الشيطان، وأبعدُه من الرِّياء) . (بلوغ الأرب : ٣٥١/٥) .

و**قال ذي النون** رضي الله تعالى عنه قال : ثلاث من علامات الإخلاص : استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال ، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة . (الأذكار : ١ / ٧) .

وقال ﷺ (**أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**) متفق عليه .

قال ابن قدامة : والتطوع في البيت أفضل ... ولأن الصلاة في البيت أقرب إلى الإخلاص ، وأبعد من الرياء ، وهو من عمل السر ، وفعله في المسجد علانية والسر أفضل . (المغني : ٣ / ٣٤٠) .

وقال ﷺ (**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**) رواه مسلم .

قال ابن رجب : إنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار، لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص . (لطائف المعارف : ٨٨)

قال الشافعي : لا يعرف الرياء إلا مخلص . (بستان العارفين : ٥٣)

قال ابن الجوزي : إنما يتبعثر من لم يخلص . (صيد الخاطر : ٤٥٧)

قال ﷺ (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل) .

وقال ﷺ (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها .

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق ، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغفر له بذلك . (منهاج السنة : ٦/٢٢١)

قال ابن تيمية : فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص ، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له . (منهاج السنة : ٦ / ١٢٢)

قال السعدي : ومن فوائد قصة يوسف: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله (وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء. (تفسير السعدي : ١ / ٤٠٧) .

١١- كان من دعاء عمر : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . (التدمرية : ١ / ٩١)

و**قال ابن القيم** : من عوّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره ، ومن عوّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس. (عدة الصابرين : ٧٢) .

جاء رجلٌ إلى حذيفة بن اليمان ﷺ يقول له : إني أخافُ أنْ أكون منافقًا، فقال: لو كنتَ منافقًا ما خِفتَ أن تكون منافقًا، إنَّ المنافق قد أمِن النِّفاق .

قال مالك بن دينار: القرَّاء ثلاثة: قرَّاء الرحمن، وقرَّاء الدنيا، وقرَّاء الملوك، وإنَّ محمد بن واسِع مِن قرَّاء الرحمن . (إحياء علوم الدين : ٢ / ٤٨٣) .

قال الحسن البصري : أصْل الرِّياء حبُّ المحْمدَة . (تفسير القرطبي : ٥ / ١٨٢) .

قال محمد بن المبارك الصُّوري : أظْهِر السَّمْت بالليل، فإنه أشْرف مِن سمتك بالنهار؛ لأنَّ السمت بالنهار للمخلوقين، وسَمْت الليل لربِّ العالمين .

قال تعالى (**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُم**) .

قال ابن كثير : فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها ، لأنه أبعد عن الرياء .

وقال القرطبي : قوله تعالى (فَنِعِمَّا هِيَ) ثناء على إبداء الصدقة ، ثم حكم على أن الإخفاء خير من ذلك.

ولذلك قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطُنع إليك فانشره.

وقال العباس بن عبد المطلب ﷺ : لا يتمّ المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيلُه وتصغيرُه وسترهُ؛ فإذا أعجلته هنيّته، وإذا صغّرته عظّمته ، وإذا سترته أتْمَمْته. (تفسير القرطبي : ٣ / ٣٣٤) .

وقال ابن الجوزي : وإنما فضلت صدقة السر لمعنيين :

أحدهما : يرجع إلى المعطي وهو بُعْدُه عن الرياء ، وقربه من الإخلاص ، والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية .

والثاني : يرجع إلى المعطَى ، وهو دفع الذل عنه بإخفاء الحال ، لأن في العلانية ينكر .

ثم قال : واتفق العلماء على إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها .(زاد المسير : ١ / ٢٨٠) .

وقال ﷺ (**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**) متفق عليه .

قال النووي : وَفِي هَذَا الْحَدِيث فَضْل صَدَقَة السِّرّ ، قَالَ الْعُلَمَاء : وَهَذَا فِي صَدَقَة التَّطَوُّع فَالسِّرّ فِيهَا أَفْضَل ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَب إِلَى الْإِخْلَاص وَأَبْعَد مِنْ الرِّيَاء .

قَالَ الْعُلَمَاء : وَذَكَرَ الْيَمِين وَالشِّمَال مُبَالَغَة فِي الْإِخْفَاء وَالِاسْتِتَار بِالصَّدَقَةِ . (شرح مسلم : ٣ / ٤٨١) .

وقَوْله ﷺ (**وَرَجُل ذَكَرَ اللَّه تَعَالَى خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**) .

قال النووي : فِيهِ فَضِيلَة الْبُكَاء مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَفَضْل طَاعَة السِّرّ لِكَمَالِ الْإِخْلَاص فِيهَا . (شرح مسلم : ٤٨١/٣) .

وقال تعالى (**ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً**) .

قال الشنقيطي : نَادَاهُ (نِدَاءً خَفِيًّا) أَيْ : دَعَاهُ فِي سِرٍّ وَخُفْيَةٍ ، وَثَنَاؤُهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَيْهِ بِكَوْنِ دُعَائِهِ خَفِيًّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِخْفَاءَ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهِ وَإِعْلَانِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْإِخْفَاءُ أَفْضَلَ مِنَ الْإِظْهَارِ ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِخْلَاصِ ، وَأَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ .

وقال السعدي : ... وناداه نداء خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً . (تفسير السعدي : ١ / ٤٨٩) .

قال الأعمش : إن لي عشرين سنة ما رأيت مخلصاً في علمه ، إنما صار العلم حرفة للمفاليس . (تنبيه المغترين) .

وقال النووي : من علامة المخلص أن يتكدر إذا اطلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه ، فإن فرح النفس بذلك معصية وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي .

(**وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ**) أي: أدوها على وجه مستقيم بشروطها وأركانها ومستحباتها كما جاء عن رسول الله ﷺ.

– قال الشيخ السعدي: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

– لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة).

– إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر.

– قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) يشمل صلاة الفرض والنفل.

(**وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**) أي : وأنفقوا من أموالهم في وجوه البر والخير ، وهذا من أعظم علامات الإيمان .

اختلف في المراد بالنفقة هنا: فقيل: الزكاة المفروضة، وقيل: صدقة التطوع، والصحيح أنها عامة في كل أنواع الإنفاق، ورجح هذا القول ابن جرير الطبري والقرطبي والسعدي.

– قال السعدي: يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير.

- قوله تعالى (**مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**) أي ينفقون بعض مالهم لا كله.

- قال السعدي: وأتى بـ[من] الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم.

- وفي الآية فضل الإنفاق في طاعة الله ، ومن فضائله:

أن الإنفاق استجابة لأمر ربنا تعالى.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ).

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

مضاعفة الحسنات.

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

أن درجة البر تنال بالإنفاق.

قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ).

أنها من صفات المتقين.

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فقوله تعالى (فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) دليل على أن الإنفاق ملازم لهم في جميع أحوالهم.

الأمان من الخوف يوم الفزع الأكبر.

قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ).

أن صاحب الإنفاق موعود بالخير الجزيل.

قال تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ).

وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ).

أن الله يخلف الصدقة.

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

أن الإنفاق دليل على صحة الإيمان.

قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم، فالصدقة برهان على صحة الإيمان.

ينال دعاء الملائكة.

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكان: يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه.

فضل من سبق بالإنفاق والجهاد.

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى).

أنها إرغام للشيطان وحسن ظن بالله.

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير.

قال ﷺ (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا).

(**سِرًّا وَعَلاَنِيَةً**) إشارة إلى الحث على استواء الحالتين تنبيهاً على الإخلاص ، ويجوز أن يكون المراد بالسر ما ينبغي فيه الإسرار كالنوافل ، وبالعلانية ما يندب إلى إظهاره كالواجب إلا أن يمنع مانع .

كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والإنفاق [الزكاة] كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).

قيل: إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في نفع الخلق.

وقيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

قال بعض العلماء : ونبه على هاتين الخصلتين : العبادة البدنية ، والعبادة المالية ، إذ هما عمود الدين ، والصبر عليهما أعظم صبر لتكرر الصلوات ، ولتعلق النفوس بحب تحصيل المال.

ونبه على حالتي الإنفاق ، فالسر أفضل حالات إنفاق التطوع كما جاء في "السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها" والعلانية أفضل حالات إنفاق الفروض ، لأنّ الإظهار فيها أفضل.

(**وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**) أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالاً وصفحاً وعفواً .

كما قال تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

قال الرازي : قوله تعالى (وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة) فيه وجهان :

الأول : أنهم إذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة .

كما روى أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل : " إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها .

والثاني : أن المراد أنهم لا يقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير .

كما قال تعالى (وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ليس الوصول من وصل ثم وصل تلك المجازاة لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله ، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج ، لكن الحليم من قدر ثم عفا.

وعن الحسن : هم الذين إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا .

(**أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**) أي : العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ، وهي (الجنة) وقد جاء تفسيرها في قوله تعالى :

(**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**) أي: أولئك الذين قدموا ما قدموا في دنياهم من العمل الصالح، لهم جنات دائمة باقية، يدخلونها هم وَمَنْ صَلَحَ أي: ومن كان صالحا لدخولها مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ.

وفي قوله سبحانه (وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ) دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول الجنة، إلا إذا كانت أعمالهم صالحة، أما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم وحدها لا تنفعهم في هذا اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

قال ابن كثير : وقوله (وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) أي : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتنانا من الله وإحسانا، كما قال تعالى وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِين .

– وعدن مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه .

(**وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ**)أي : والملائكة يدخلون على هؤلاء الأوفياء الصابرين ... من كل باب من أبواب منازلهم في الجنة، قائلين سلام عليكم .

وفي قوله (يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ) إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم، وإلى كثرة أبواب بيوتهم، تكريماً وتشريفاً وتأنيساً لهم.

(**سَلَامٌ عَلَيْكُم**) أي: أمان دائم عليكم .

كما تعالى في سورة يونس (وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) أي: أَنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ سَلَامٌ، أَيْ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِذَلِكَ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ.

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى هَذَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) .

وَقَوْلِهِ (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) .

وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا الْآيَةَ) .

وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا).

وَقَوْلِهِ (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

– قال ابن القيم: ... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولاً من رب رحيم).

(**بِما صَبَرْتُمْ**) أي : بسبب صبركم على كل ما يرضى الله تعالى .

– وفي قوله (بِما صَبَرْتُمْ) إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكاليف، وعلى الأذى، وعلى كل ما يحمد فيه الصبر، كان على رأس الأسباب التي أوصلتهم إلى تلك المنازل العالية .

وفي هذا فضل عظيم للصبر :

كما قال تعالى (وَجَزَاهُمْ **بِمَا صَبَرُوا** جَنَّةً وَحَرِيراً).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ **بِمَا صَبَرُوا** وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا) .

وقال تعالى (أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ **بِمَا صَبَرُوا** وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) .

وقال تعالى (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ **بِمَا صَبَرُوا** أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

– وللصبر فضائل كثيرة :

معية الله للصابرين.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).

محبة الله لهم.

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ).

إطلاق البشرى لهم.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم.

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ضمان المدد والنصرة لهم.

قال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ).

استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم.

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً).

وقال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) .

حفظهم من كيد الأعداء.

قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ).

سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين.

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ).

قال ابن تيمية: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون).

أنه من أسباب النصر.

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر).

أمر الله به المؤمنين.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

– **قال السعدي:** قوله تعالى (اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا) وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج.

وقال : أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله .

الصبر ضياء.

كما قال ﷺ (والصبر ضياء).

أنه خير ما أعطي العبد.

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم.

فالصبر سلاح عظيم للحصول على كل خير في الدنيا والنجاة من كل كرب.

كما قال تعالى (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا).

وقال تعالى (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ).

وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ...).

وصبر يوسف عليه السلام من إجابة امرأة العزيز حين دعته إلى نفسها فصبر وقال (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

فمن فضائل الصبر أنه من أعظم المعين على أمور الدنيا والآخرة .

(**فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**) أي : نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم ، وهي الجنة بدل النار .

الفوائد :

١- وجوب الوفاء بالعهد .

٢- أن الوفاء بالعهد من صفات أصحاب العقول النيرة المستنيرة .

٣-تحريم نقض العهد .

٤- وجوب صلة الأرحام .

٥- تحريم قطع الأرحام .

٦- فضل خشية الله في السر والعلن .

٧- فضل الخوف من الله ومن هول يوم القيامة .

٨- فضل الصبر محتسباً صبره عند الله .

٩- أن الصبر ينقسم إلى نوعين :

الأول الصبر المذموم : وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع ، وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء ، وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلاً تحت قوله (ابتغاء وجه ربهم) لأنه لغير الله تعالى.

النوع الثاني : **الصبر المحمود** : وهو أن يكون الإنسان صابراً لله تعالى راضياً بما نزل به من الله طالباً في ذلك الصبر ثواب الله محتسباً أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله (ابتغاء وجه ربهم) يعني صبروا على ما نزل بهم تعظيماً لله وطلب رضوانه .

١٠- أن العمل لا يكون مقبولاً إلا إذا كان خالصاً لله تعالى .

١١- العمل كلما كان أخلص كان أعظم أجراً وأكثر ثواباً .

١٢- فضل إقام الصلاة على وجهها المطلوب .

١٣- فضل الصلاة وعلو منزلتها .

١٤-فضل الإنفاق في طاعة الله .

١٥- فضل الكرم .

١٦- ذم البخل .

١٧- فضل نفع الناس ابتغاء وجه الله .

١٨-فضل دفع الجهل بالحلم والأذى بالصبر .

١٩-الحث على الأخلاق الحميدة ومنها دفع جهل الجهال بالصبر والتغاضي .

٢٠-إثبات الجنة .

٢١- الحرص على الاتصاف بهذه الصفات العظيمة ، لأنها من أسباب دخول الجنة .

٢٢- من نعيمهم في الجنة دخول الملائكة عليهم تسلم عليهم .

٢٣- فضل عظيم للصبر ، لأنهم نالوا هذا الثواب الجزيل بصبرهم .

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)) .

[الرعد : ٢٥] .

بعد أن ذكر- سبحانه- صفات هؤلاء الأوفياء، وما أعد لهم من ثواب جزيل، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الناقضين لعهودهم، القاطعين لما أمر الله بوصله. المفسدين في الأرض .

قال الرازي : اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما ترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر حال الأشقياء ، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ، ليكون البيان كاملاً

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) ونقض العهد ضد الوفاء به ، وهذا من صفة الكفار لأنهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره ، ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول .

والنقض: إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد.

ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به.

وقوله (مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ) زيادة في تشنيع النقض. أي: ينقضون عهد الله تعالى ولا يوفون به. من بعد أن أكدوا التزامهم به وقبولهم له.

(وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ) أي: ويقطعون كل ما أوجب الله- تعالى- وصله ، ومن ذلك قطع الأرحام .

وفي هذا تحريم قطع الرحم :

ففي قطيعة الرحم سبب في عدم دخول الجنة .

عن جُبَيْر بْن مُطْعِمٍ أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ) متفق عليه .

وحصول اللعنة .

قال تعالى (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) .

قال علي بن الحسين لولده: يا بني لا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواطن.

وسبب في عدم قبول عمل قاطع رحم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلاَ يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ) رواه أحمد .

وعقوبة قاطع الرحم تعجل في الدنيا قبل الآخرة .

عنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ) رواه الترمذي .

وقطع الرحم قطع للوصل مع الله .

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ (الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله) متفق عليه .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ نَعَمْ

أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ بَلَى. قَالَ فَذَاكَ لَكِ ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) متفق عليه .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا الرَّحْمَنُ وَأَنَا خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وَاشْتَقَقْتُ لَهَا مِنَ اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ) رواه أحمد .

(**وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**) والإفساد بالأرض يكون بارتكاب المعاصي فيها من الشرك بالله، والقتل، والربا، وغيرها .

كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

(**أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**) أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لَهُمُ من الله تعالى «اللعنة» والطرد من رحمته.

(**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**) أي : وَلَهُمْ فوق ذلك، الدار السيئة وهي جهنم التي ليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها.

الفوائد :

١- تحريم نقض العهد .

٢- وجوب الوفاء بالعهد .

٣- من علامات الكفار نقض العهود .

٤- وجوب صلة الرحم .

٥- تحريم قطع الرحم .

٦- تحريم الإفساد في الأرض بكل أنواع المعاصي .

٧- المعصية سبب لفساد الأرض .

٨- الطاعة سبب لعمارة الأرض .

٩- الحذر من الاتصاف بهذه الصفات حيث لعنهم الله .

١٠- أن مأوى الكفار النار .

(**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ (٢٦)**) .

[الرعد : ٢٦] .

قال أبو حيان : ولما كان كثير من الأشقياء فتحت عليهم نعم الدنيا ولذاتها أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، والكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق ، قد يقدر على المؤمن ليعظم أجره ، ويبسط للكافر إملاء لازدياد آثامه.

وقال الشوكاني: لما ذكر- سبحانه- عاقبة المشركين بقوله أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيرا منهم قد وفر الله له في الرزق وبسط له فيه. فأجاب- سبحانه- عن ذلك: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا، ويقتره على من كن مؤمنا ابتلاء وامتحانا، ولا يدل البسط على الكرامة، ولا القبض على الإهانة .

(**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ**) أي : يوسّع على من يشاء من عباده في الرزق والسعة .

(**وَيَقْدِرُ**) ويضيّق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة .

قال المفسرون : معنى (يقدر) ههنا يضيق ، ومثله قوله تعالى : {ومن قدر عليه رزقه} أي ضيق ، ومعناه : أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء.

والمعنى : أن الله تعالى وحده هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه، وهو وحده- أيضاً- الذي يضيقه على من يشاء منهم لحكم هو يعلمها، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان، فقد يوسع على الكافر استدراجا له، وقد يضيق على المؤمن امتحاناً له، أو زيادة في أجره.

قوله (لمن يشاء) كل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي: أنها ليست مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً ، وهذا عام في أحكام الله الشرعية والقدرية:

في الشرعية قال تعالى في المواريث (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً).

وفي الأمور القدرية قال تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً).

وهذه الحكمة قد تكون معلومة للجميع ، وقد تكون معلومة لبعض الناس ، وقد تكون مجهولة لكل الناس ، لا يحيطون بالله علماً.

- من الحكم في تفاوت حال الناس في الفقر والغنى :

منها : جد بعضهم ومهارته في التكسب، وخمول بعضهم وكسله .

ومنها : تسخير بعض العباد لبعض المهن التي لا يستطيع البعض مزاولتها .

كما قال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) .

فأغنى الله بعض الناس وأفقر بعضاً ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .

قال الصاوي : إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق ، لينتفع بعضهم ببعض ، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال ، لم يخدم أحد أحداً ، فيفضي إلى خراب العالم ، وفساد نظامه .

وقال أبو حيان : وقوله تعالى (سخرياً) بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام ، لا من السخرية بمعنى الهزء ، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعهم ، ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ، ما أطاق ذلك ، وضاع وهلك ، وفي قوله (نحن قسمنا) تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا ، وعون على التوكل على الله . (البحر المحيط) .

وقال قتادة : تلقى إنساناً ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، عيي اللسان ، وهو موسع عليه في الرزق ، وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه في الرزق ، وقال الشافعي : ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق .

ومنها : كذلك أن الفقر قد يكون أصلح لبعضهم من الغنى، والعكس صحيح .

ومنها : ابتلاء الغني في غناه هل يشكر، وابتلاء الفقير هل يرضى ويصبر .

قال الله تعالى (ورفعنا بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم) .

هذا وليعلم أن إغناء هذا وإفقار هذا لا يدل بالضرورة على تكريم الغني ولا إهانة الفقير .

كما قال الله تعالى (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كلا) .

(**وَفَرِحُوا**) أي : الكفار وكل من شاكلهم في الكفر والطغيان. والمراد بالفرح هنا: الأشر والبطر وجحود النعم.

(**بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي : وفرح هؤلاء الكافرون بربهم، الناقضون لعهودهم، بما أوتوا من بسطة في الرزق في دنياهم، فرح بطر وأشر ونسيان للآخرة لا فرح سرور بنعم الله، وشكر له- سبحانه- عليها، وتذكر للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

قال ابن عاشور : فالفرح المذكور فرحُ بَطَر وطغيان كما في قوله تعالى في شأن قارون (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب

الفرحين) فالمعنى فرحوا بالحياة الدنيا دون اهتمام بالآخرة.

وقال أبو حيان : وإنما يُمدَح الفرح ويُذمُّ بحسب متعلَّقه؛ فإذا كان بنيل ثواب الآخرة وأعمال البر، كان محمودًا، وإذا كان بنيل لذات الدنيا وحطامها، كان مذموماً .

وقال ابن جزي : الفرح هنا هو الذي يقود إلى الإعجاب والطغيان، ولذلك قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وقيل: السرور بالدنيا، لأنه لا يفرح بها إلا من غفل عن الآخرة، ويدل على هذا قوله: وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم .

وقال ابن عطية : الفرح إذا ورد مقيداً في خير فليس بمذموم... وإذا ورد مقيداً في شر أو مطلقاً لحقه ذم، إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربه.

وقد حذَّر اللهُ –تعالى– من الفرح بغير الحق بقوله (ذلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُون) .

ومرنا الله –تعالى– بالفرح بالأمور العظيمة المتعلقة بمرضاة الله والدار الآخرة الباقية، قال سبحانه (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون) .

من هنا نعلم أن الفرح المحمود هو الفرح بنعمة الله –تعالى– وتوفيقه للطاعات والقربات، أو بانتصار الحقّ على الباطل .

كما قال سبحانه (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم) .

ومن ذلك فرح الصائم بفطره : كما قال ﷺ (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِه) .

ومن مظاهر الفرح المحمود :فرح المؤمن بشريعة ربه، وأمْرِه ونهيه .

قال تعالى (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْك) .

ومن صور الفرح المذموم :

الفرح بمعصية رسول الله ﷺ ومخالفة أمره .

قال تعالى (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُون) .

ومنها : الفرح بالأعمال السيئة والإعجاب بها .

قال تعالى (لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم) .

ومنها : كذلك :الفرح المؤدي إلى الأشر والطغيان والعصيان، مع نسيان حق الله من الطاعة والشكر .

قال تعالى (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِين) يعني: الأشِرين البطِرين.

(**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ**) بيان لقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة ، أي : عَرَض قليل وشيء حقير بالنظر إلى الآخرة .

والمتاع: ما يتمتع به الإنسان في دنياه من مال وغيره لمدة محددة ثم ينقضي.

قال ابن عاشور : والمتاع ما يتمتع به وينقضي.

أي : إن هؤلاء الفرحين بنعم الله عليهم في الدنيا، فرح بطر وأشر وجحود، لن يتمتعوا بها طويلاً ، لأن نعيم الدنيا ليس إلا شيئاً قليلاً بالنسبة لنعيم الآخرة.

وتنكير (متاع) للتقليل، كقوله تعالى في آية أخرى (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهاد) .

ففي هذا : أن الحياة الدنيا متاع قليل زائل .

قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً).

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ...) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري .

وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور).

قال النووي : أي لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه .

قال موسى عليه الصلاة والسلام: الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم: مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتؤمّلون ما لا تأخذون ، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً ، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد.

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا.

وقال ابن القيم: لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة.

وقال: الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، والسير في طلبها كالسير في أرض مسبعة – أي كثيرة السباع – السباحة فيها كالسباحة في غدير التمساح.

وقال ابن رجب : وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى.

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما

يأكله الدود غدا كان الإمام أحمد ﷺ يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك. (جامع العلوم والحكم) .

الفوائد :

١-أنَّ الأَرْزاق بيَدِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله تعالى (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) .

٢- وَيترتَّب على هذا فائِدة، وهي أن نَطلُب الرِّزْق من الله تعالى؛ لأنه هو الذي يَبسُط الرِّزْق وَيقدِر.

٣- أن تفاوت الناس في الغنى والفقر من حكمة الله تعالى العظيمة .

٤- إِثْبات المشيئة لله تعالى، لقوله تعالى: (لِمَنْ يَشَاءُ).

٥-أنَّ كَثْرة المال والولَد لا يَدُلُّ على الرِّضا، وإنما هو تابع لمشيئة الله تعالى.

٦- تمَام رُبوبية الله عَزَّ وَجَلَّ وسُلطانه؛ لكونه يَبسُط وَيقدِر، ولا أحَدَ يُمكِن أن يَعتَرِض عليه، وحتى لو اعتَرَض عليه فلا يَنفَع هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ الله تعالى مُدبِّر لما يَشاءُ.

٧- أن الفرح ينقسم إلى قسمين ، فرح مذموم وفرح محمود ، كما تقدم .

٨- ذم التعلق بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة .

٩- أن الدنيا متاع زائل قليل .

١٠- الترغيب في الآخرة والعمل لها .

١١- أن الدنيا ليست موطن بقاء .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)).

[الرعد : ٢٧- ٢٩] .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) أي : ويقول الكافرون على سبيل العناد والجحود، هلا أنزل على هذا الرسول آية كونية تدل على صدقه، كأن يحيي لنا موتانا، أو أن يحول لنا جبل الصفا ذهباً .

وكأنهم يرون أن القرآن الذي نزل عليه ﷺ لا يكفي- في زعمهم- أن يكون آية ومعجزة شاهدة على صدقه .

قال الرازي : اعلم أن الكفار قالوا : يا محمد إن كنت رسولاً فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

وقد تقدم تفسير الآية في أول السورة .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ) بعدله .

(مَن يَشَاء) من عباده .

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ) بفضله وكرمه .

(مَنْ أَنَابَ) أي من رجع وناب إلى الله .

قال الرازي : اعلم أن الكفار قالوا : يا محمد إن كنت رسولاً فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام ... فأجاب عن هذا السؤال بقوله (قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) .

وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه :

أحدها : كأنه تعالى يقول : إن الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، ولكن الإضلال والهداية من الله ، فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة ، وهدى أقواماً آخرين إليها ، حتى عرفوا بها صدق محمد ﷺ في دعوى النبوة ، وإذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات .

وثانيها : أنه كلام يجري مجرى التعجب من قولهم وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي ظهرت على رسول الله ﷺ كانت أكثر من أن تصير مشتبهة على العاقل ، فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم (إن الله يضل من يشاء) من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية (ويهدي) من كان على خلاف صفتكم.

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف طابق قولهم لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قوله قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ... ؟

قلت: هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة والمتكاثرة التي أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية. فإذا جحدوها ولم يهتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ كان على خلاف صفتكم أَنابَ أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير .

وقال ابن عاشور : .... وتحت هذا التعجيب معان أخرى:

أحدها : أن آيات صدق النبي ﷺ واضحة لولا أن عقولهم لم تدركها لفساد إدراكهم.

الثاني : أن الآيات الواضحة الحسية قد جاءت لأمم أخرى فرأوها ولم يؤمنوا ، كما قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) .

الثالث : أن لعدم إيمانهم أسباباً خفية يعلمها الله قد أبهمت بالتعليق على المشيئة في قوله (يضل من يشاء) منها ما يُومئ إليه قوله في مقابلة (ويهدي إليه من أناب) وذلك أنهم تكبروا وأعرضوا حين سمعوا الدعوة إلى التوحيد فلم يتأملوا ، وقد ألقيت إليهم الأدلة القاطعة فأعرضوا عنها ولو أنابوا وأذعنوا لهداهم الله ولكنهم نفروا.

(**الَّذِينَ آمَنُواْ**) حق الإيمان ، آمنوا بما يجب الإيمان به .

(**وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ**) أي : تستقر قلوبهم وتسكن، بسبب تدبرهم لكلامه المعجز وهو القرآن الكريم وما فيه من هدايات.

(**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**) ألا بذكره وحده دون غيره من شهوات الحياة تسكن القلوب أنساً به، ومحبة له.

قال الآلوسي (أَلاَ بِذِكْرِ الله) وحده (تَطْمَئِنُّ القلوب) لله دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنياويات .

وفيه إشعار بأن الكفرة لا قلوب لهم وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا به ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها .

ولا تنافي بين هذه الآية على سائر الأوجه وقوله تعالى (إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) لأن المراد هناك وجلت من هيبته تعالى واستعظامه جلت عظمته.

قال ابن عطية : و" طمأنينة القلوب " هي الاستكانة والسرور بذكر الله. والسكون به كمالاً به.

قال ابن القيم : الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه ومنه الأثر المعروف: الصدق طمأنينة والكذب ريبة أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع ويجد عنده سكونا إليه والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً .

قال الآلوسي : قوله تعالى (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) أي: تستقر وتسكن (بِذِكْرِ الله) أي : بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه وهو المروى عن مقاتل، وإطلاق الذكر على ذلك شائع في الذكر، ومنه قوله تعالى : (وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ) و(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون) وسبب اطمئنان قلوبهم بذلك علمهم أن لا آية أعظم ومن ذلك لا يقترحون الآيات التي يقترحها غيرهم .

وقال ابن عاشور : و(ذكر الله) يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه.

ويجوز أن يراد به القرآن قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) ، وهو المناسب لقولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) .

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة الزمر (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) ، أي للذين كان قد زادهم قسوة قلوب ، وقوله في آخرها (ثم تلين جُلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) .

والذكر من أسماء القرآن ، ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته.

– تلاوة القرآن الكريم والعمل به سبب لاطمئنان القلب وسكينته .

قال تعالى (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) .

قال ابن تيمية : وَلِهَذَا أَمَرَ قَارِئَ الْقُرْآنِ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ تُورِثُ الْقَلْبَ الْإِيمَانَ الْعَظِيمَ وَتَزِيدُهُ يَقِينًا وَطُمَأْنِينَةً وَشِفَاءً . وَقَالَ تَعَالَى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) وَقَالَ تَعَالَى (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) وَقَالَ تَعَالَى (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) وَقَالَ تَعَالَى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) . وَهَذَا مِمَّا يَجِدُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَالشَّيْطَانُ يُرِيدُ بِوَسَاوِسِهِ أَنْ يَشْغَلَ الْقَلْبَ عَنْ الِانْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ الْقَارِئَ إذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ أَنْ يَسْتَعِيذَ مِنْهُ .

(**الَّذِينَ آمَنُواْ**) بقلوبهم .

(**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**) أي: وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات.

– والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

– والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

قال السعدي : ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(**طُوبَى لَهُمْ**) قيل : اسم شجرة في الجنة ، وقيل : فرح وقرة عين لهم ، وقيل : غبطة لهم ، وقيل : خير وكرامة .

وكلها متقاربة .

(**وَحُسْنُ مَآبٍ**) أي وحسن مرجع .

الفوائد :

١- تعنت الكفار في طلب الآيات .

٢- أن الله أيده نبيه ﷺ بالآيات الواضحات لكن الكفار يعاندون ويستكبرون .

٣- الهداية بيد الله .

٤- فضل ذكر الله .

٥- الحث على الإكثار من تلاوة القرآن وتدبره ، فإنه سبب للطمأنينة والسكينة .

٦- لا يمكن أن تطمئن القلوب بغير ذكر الله .

٧- ذم كل من يطلب راحة باله واطمئنان قلبه بملذات الدنيا ، فإنه لن يجدها .

٨-فضل الإيمان والعمل الصالح وأنه سبب لطيب العيش والنعيم في الدنيا والآخرة .

٩- الحرص على أن يكون العمل صالحاً حتى يكون مقبولاً ، فلا يكون رياء ولا سمعة .

(**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)**) .

[الرعد : ٣٠] .

(**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**) الكاف في قوله (كَذلِكَ) للتشبيه حيث شبه- سبحانه- إرساله ﷺ إلى الناس، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم.

والمراد بالأمة هنا: أمة الدعوة التي أرسل إليها الرسول ﷺ فآمن من آمن من أفرادها، وكفر من كفر.

أي : كما أرسلنا رسلاً سابقين إلى أقوامهم ، أرسلناك يا محمد إلى قومك الذين قد سبقهم أقوام ورسل كثيرون لكي تقرأ على مسامعهم هذا القرآن العظيم الذي أوحيناه إليك من لدنا، ولتبين لهم ما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات، كما بين الرسل الذين سبقوك لأقوامهم ما أمرهم الله- تعالى- ببيانه.

وفي قوله تعالى (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ) تعريض بمشركي مكة، وأنهم إذا ما استمروا في طغيانهم، فسيصيبهم ما أصاب الأمم الخالية.

وقوله (لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ) المقصود منه تفخيم شأن القرآن الكريم، وأنه هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ وأن وظيفة الرسول ﷺ قراءته عليهم قراءة تدبر واستجابة لما يدعوهم إليه.

وأن قول المشركين (لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) إنما هو قول يدل على عنادهم وغبائهم وجحودهم للحق بعد أن تبين.

(**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**) أي : وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذي رحمته وسعت كل شيء وما بهم من نعمة فمنه ، وكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز عليهم .

قال الرازي : اعلم أن قوله (وهم يكفرون بالرحمن) إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا بإطلاق هذا الاسم على الله تعالى ، لا أنهم كفروا بالله تعالى.

وقال آخرون : بل كفروا بالله إما جحداً له وإما لإثباتهم الشركاء معه.

(**قُلْ**) لهم يا محمد .

(**هُوَ رَبِّي**) الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

(**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**) لا إله بحق إلا هو .

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبداً لربه، ممتثلا أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة.

– في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى.

قال ابن كثير: إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

وقال السعدي : فأخبر أنه الله، الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، وعبودية غيره باطلة.

وقال ابن رجب: قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً. وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللَّهُ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ. قَالَ تَعَالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم).

– فضائل كلمة التوحيد:

أولاً: هِيَ كَلِمَةُ اَلْإِخْلَاصِ، وَشَهَادَةُ اَلْحَقِّ وَدَعْوَةُ اَلْحَقِّ، وَبَرَاءَةٌ مِنْ اَلشِّرْكِ، وَلِأَجْلِهَا خُلِقَ اَلْخَلْقُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون).

ثانياً: وَلِأَجْلِهَا أُرْسِلَتْ اَلرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ اَلْكُتُبُ

قَالَ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون).

وقال تعالى (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ).

ثالثاً: هي ثَمَنُ اَلْجَنَّةِ.

قال ﷺ (مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ دَخَلَ اَلْجَنَّة) رواه أبو داود.

رابعاً: وهي نَجَاةٌ مِنْ اَلنَّارِ.

وَسَمِعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ مُؤَذِّنًا يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، فَقَالَ خَرَجَ مِنْ اَلنَّارِ. خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ

خامساً: وهي أَحْسَنُ اَلْحَسَنَاتِ:

قَالَ أَبُو ذَرٍّ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ! عَلِّمْنِي عَمَلاً يُقَرِّبُنِي مِنَ اَلْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنْ اَلنَّارِ، قَالَ: إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً، فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ مِنَ اَلْحَسَنَاتِ؟ قَالَ هِيَ أَحْسَنُ اَلْحَسَنَات).

سادساً: وَهِيَ: تُجَدِّدُ مَا دُرِسَ مِنَ اَلْإِيمَانِ فِي اَلْقَلْبِ.

كما فِي اَلْمُسْنَدِ أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ (جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه).

سابعاً: وَهِيَ اَلَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ فِي اَلْوَزْنِ، فَلَوْ وُزِنَتْ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رَجَحَتْ بِهِنَّ.

كَمَا فِي اَلْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اَللَّهُ، فَإِنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ مُبْهَمَةٍ قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو. عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ مُوسَى اَلسَّلَامُ قَالَ: يَا رَبُّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ. فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ. قَالَ: يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ).

ثامناً: وَهِيَ أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ.

كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ اَلْمَرْفُوعِ (أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ) رواه الترمذي.

تاسعاً: ومن أعظم فضائلها:

ما جاء فِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ اَلنَّبِي ﷺ قال (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ اَلْمُلْكُ وَلَهُ اَلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ اَلشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك).

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ اَلنَّبِي ﷺ قال (مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيل).

عاشراً: وَمِنْ فَضَائِلِهَا أَنَّهَا تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ اَلْجَنَّةِ اَلثَّمَانِيَةِ. يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ.

كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَر. قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُسْبِغُ اَلْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ اَلْجَنَّةِ") أَخْرَجَهُ مُسْلِم .

وَفِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَال (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اَللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ اَلْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ اَلنَّارَ حَقٌّ وَأَنَّ اَللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي اَلْقُبُورِ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ مِنَ اَلْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا) .

(**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**) في جميع أموري .

في هذا : وجوب التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه، وخاصة في نصرة الحق ومحاربة أهل الزيغ والفساد.

والتوكل على الله له فضائل:

أولاً: أنه سبب لدخول الجنة.

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

وقال تعالى (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

وقال ﷺ (... يدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب ولا عذاب، ... وعلى ربهم يتوكلون).

وقال ﷺ (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير).

حكى النووي في هذا الحديث: أن المراد بهؤلاء القوم هم المتوكلون.

ثانياً: أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل.

قال تعالى (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين).

ثالثاً: التوكل من شيم أنبياء الله ورسله وأوليائه.

قال تعالى في نوح (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ).

وقال تعالى عن هود (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

رابعاً : أهل التوكل هم أهل الإيمان.

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي: وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون.

قال ابن القيم: فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد.

خامساً: التوكل على الله مجلبة للرزق.

عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً).

سادساً: المتوكلون ليس عليهم للشيطان سبيل.

قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

سابعاً: المتوكلون الله حسبهم وكافيهم.

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً، وكفاه ونصره. (بدائع الفوائد)

ثامناً : أهل التوكل على الله هم أهل العزة والاستعلاء.

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

- والتوكل لا ينافي فعل الأسباب.

قال تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) مع أنه تعالى لو أراد أسقطه لها بدون هز منها.

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

(يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ) محافظة عليهم من العين ثم قال (وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

فقد أخذ بالسبب والحيطة، وصرح بان الاعتماد على الله وحده.

قال شيخ الإسلام : وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ).

وقال: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله

(**وَإِلَيْهِ مَتَابِ**) أي : إليه أرجع وأنيب .

الفوائد :

١- إثبات الرسل .

٢- إثبات كثرة الرسل .

٣- أن الله أرسل في كل أمة رسولاً .

٤- أن الرسول ﷺ أرسل كما أرسل الرسل من قبله .

٥- أن الرسول ﷺ آخر الرسل .

٦- أن وظيفة الرسل تبليغ هذا القرآن وتلاوته على الناس .

٧- الأمر بتلاوة القرآن الكريم .

٨-أن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة للناس .

٩- وجوب إعلان العقيدة .

١٠- لا إله حق إلا الله .

١١- تحريم كل آلة غير الله .

١٢-وجوب التوكل على الله .

١٣- أن المرجع إلى الله .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)) .

[الرعد : ٣١] .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى) أي : **(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال)** أي : لو كان كتاب من الكتب المنزلة ، سيرت بتلاوته الجبال ، وزعزعت عن أماكنها **(أو قطعت به الأرض)** أي : شققت به الأرض حتى تتصدع وتصير قطاً **(أو كلم به الموتى)** أي : خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت ، بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها .

وجواب (لو) محذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، لكونه غاية في الهداية والتذكير ، ونهاية في الانذار والتخويف وقال الزجاج : تقديره " لما آمنوا " لغلوهم في المكابرة والعناد ، وتماديهم في الضلال والفساد .

وهذا اختيار ابن جرير ، وابن كثير : أن جواب (لو) هو القرآن الكريم .

- وعلى هذا المعنى يكون الغرض من الآية الكريمة بيان عظم شأن القرآن الكريم، وإبطال رأى الكافرين الذين طلبوا من الرسول ﷺ آية كونية سواه.

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق التي طلبوها منه ﷺ ما ذكره الإمام ابن كثير من أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد، لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا) إضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن الأمور كلها بيد الله، وأن قدرته- سبحانه- لا يعجزها شيء.

أي: إن الله- تعالى- لا يعجزه أن يأتي بالمقترحات التي اقترحوها، ولكن إرادته- سبحانه- لم تتعلق بما اقترحوه، لعلمه- سبحانه- بعتوهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات.

(أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) أي : أفلم يعلم ويتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس

جميعاً . (وهذا أحد الأقوال أن معنى ييأس : يعلم ويتبين) .

فالعلماء في هذه الآية على قولين :

الأول : يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقي وهو قطع الطمع في الشيء، وعليه يكون المعنى: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش، ويعلموا أن الله تعال لو يشاء هداية الناس جميعا لاهتدوا، ولكنه لم يشأ ذلك، ليتميز الخبيث من الطيب.

الثاني : أن الفعل ييأس بمعنى يعلم، وعليه يكون المعنى: أفلم يعلم المؤمنون أنه- سبحانه- لو شاء هداية الناس جميعا لآمنوا.

قال الخازن : قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أكثر المفسرين : معناه أفلم يعلم .

(**وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ**) أَيْ : بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لَا تَزَالُ الْقَوَارِعُ تُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا .

والقارعة: من القرع، وهو ضرب الشيء بشيء آخر بقوة وجمعها قوارع ، والمراد بها: الرزية والمصيبة والكارثة.

قال ابن عطية : و" القارعة " : الرزية التي تقرع قلب صاحبها بفظاعتها كالقتل والأسر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه.

- أن ذنوب الإنسان وكفره وظلمه سبب للبلايا والمصائب :

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

(**أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ**) أي : تصيب من حولهم لِيَتَّعِظُوا وَيَعْتَبِرُوا .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وَقَالَ (أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ) .

فقوله (أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ) أي : القارعة ، وهذا الظاهر من السياق .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (أو تَحُلُّ قريباً من دارهم قولان :

أحدهما : أنه رسول الله ﷺ فالمعنى : أو تَحُلُّ أنت يا محمد .

والثاني : أنها القارعة ، قاله الحسن.

(**حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ**) وهو فتح مكة ، قاله ابن عباس ، وقيل : القيامة ، قاله الحسن.

قال الشوكاني : (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) وهو موتهم ، أو قيام الساعة عليهم ، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حلّ بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدّة ، وقيل : المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار ، والأوّل أولى .

(**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**) أيْ : لَا يَنْقُصُ وَعْدَهُ لِرُسُلِهِ بِالنُّصْرَةِ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ) .

قال الخازن : والغرض منه تشجيع قلب النبي ﷺ وإزالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد .

قال الشيخ ابن عثيمين : فالله لا يخلف الميعاد لكمال صدقه وكمال قدرته، لأن الذي يخلف الميعاد إما أن يكون لكذب الواعد، أو لعجزه.

الفوائد :

١- عظمة هذا القرآن وعلو منزلته وفضله .

٢- أن الأمر كله لله تعالى يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله .

٣- إطلاق لفظ اليأس بمعنى العلم .

٤-أن حكمة الله اقتضت أن الناس ينقسمون إلى قسمين : مهتد وضال .

٥- إثبات الحكمة لله تعالى .

٦- حكمة الله العظيمة في وجود الإيمان والشرك .

٧- سؤال الله الهداية .

٨-أن الله لا يعجزه شيء ، لو شاء لهدى الناس جميعاً .

٩-توعد الرب تبارك وتعالى الكافرين بالقوارع والمصائب في الدنيا .

١٠- أن الله لا يخلف الميعاد .

١١-أن الله لا يخلف الميعاد لكمال علمه وعدله .

(وقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)) .

[الرعد : ٣٢] .

(وقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ...) يَقُولُ تعالى مسليا لرسوله ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مَنْ قَوْمِهُ: **(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ)** أَيْ فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ .

(فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أَيْ : أَنْظَرْتُهُمْ وَأَجَّلْتُهُمْ .

(ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقاب) أي : ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً، فَكَيْفَ بَلَغَكَ مَا صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

ففي هذه الآية:

أولاً : تسلية للنبي ﷺ لأن الإنسان يتسلى بما وقع لغيره.

كما قال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِاءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون) .

قال أبو حيان (وَلَقَدِ استهزاء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ) هذه تسلية لرسول الله ﷺ على ما كان يلقى من قومه وتأسّ بمن سبق من الرسل وهو نظير (وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك) لأن ما كان مشتركاً من ما لا يليق أهون على النفس مما يكون فيه الانفراد ، وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى ، وقالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي. . على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن. . أسلي النفس عنه بالتأسي .

وأذية الداعية طبيعة البشر:

قال الله تعالى لنبيه (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .

والرسل أوذوا بالقول والفعل :

قال الله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون).

بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه (أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُون).

ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم ، قال سبحانه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً).

وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ)

ثانياً : عناية الله تعالى بنبيه ﷺ حيث ينزل عليه من القرآن ما يسليه.

ثالثاً : تهديد ووعيد شديد للمكذبين المستهزئين.

رابعاً: وعد للنبي ﷺ وللمؤمنين بالنصر والعاقبة في الدنيا والآخرة.

– وقد وقع الاستهزاء والسخرية بالأنبياء قبله ﷺ :

فمن استهزائهم بنوح قولهم له: بعد أن كنت نجاراً صرت نبياً.

وقال تعالى عن نوح (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

ومن استهزائهم بهود ما ذكره الله عنهم بقولهم (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

ومن استهزائهم بصالح قولهم فيما ذكر الله عنهم (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقولهم (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا).

ومن استهزائهم بلوط قولهم فيما حكى الله عنهم (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) .

الفوائد :

١– تسلية النبي ﷺ حيث يذكره الله بقصص الأنبياء قبله حيث كذبوا وسخر منهم .

٢ – تسلية لكل داعية إلى الله ، أن لا يبالي بما يقوله الأعداء من سخرية واستهزاء .

٣ – سنة الله في ابتلاء الأنبياء وأتباعهم .

٤ – الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد ﷺ .

٥ – تهديد المكذبين للرسول ﷺ .

٦ – أن الاستهزاء والسخرية بالرسل موجب للعقاب .

٧– أن الله يمهل ولا يهمل .

٨– شدة عذاب وعقوبة الله للمكذبين بالرسل ، وكان هلاك الأمم متنوع، فكل أمة أهلكت بعقوبة تختلف عن الأخرى لحكمة يريدها الله.

كما قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

(**أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)**) .

[الرعد : ٣٣] .

(**أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**) القائم الحفيظ والمتولي للأمور ، وأراد سبحانه نفسه ، فإنه المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق ، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت ، **والجواب محذوف** أي : أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضرّ .

قال الفراء : كأنه في المعنى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله .

والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهم . (فتح القدير) .

كما قال تعالى (وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها) .

وَقَالَ (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ) .

قَالَ (سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ) .

وَقَالَ (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى) .

وحذف الخبر هنا وهو قولنا – كمن ليس كذلك– لدلالة السياق عليه، كما في قوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ) أي: كمن قسا قلبه.

والمقصود من الآية الكريمة : إنكار المماثلة بين الخالق العظيم، العليم بأحوال النفوس ...وبين تلك الأصنام التي أشركوها مع الله تعالى في العبادة والتي هي لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لنفسها– فضلا عن غيرها– نفعاً ولا ضراً .

(**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء**) أَيْ : عَبَدُوهَا مَعَهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَنْدَادٍ وَأَوْثَانٍ .

(**قُلْ سَمُّوهُمْ**) أي : قل لهم– أيها الرسول الكريم– سموهم شركاء إن شئتم، فإن هذه التسمية لا وجود لها في الحقيقة والواقع، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم– فضلا عن غيرهم– نفعا ولا ضرا، لأن الله تعالى واحد لا شريك له.

وهذه التسمية إنما هي من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطان، كما قال تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطان) .

قال الشوكاني : : (**قُلْ سَمُّوهُمْ**) قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم ؟ وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ؛ لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحّق أن يلتفت إليه ، فيقال : سمه إن شئت يعني : أنه أحقر من أن يسمى .

وقيل : إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون ، فيكون ذلك تهديداً لهم . (فتح القدير) .

(**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ**) أي : قل أيها الرسول لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا الاسم: قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أتخبرون الله بشركاء لا وجود لهم في الأرض، لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم، لأنه– سبحانه– لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

(**أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ**) أي : أم تسمونهم شركاء ، بظن باطل فاسد لا حقيقة له ؟ لفرط الجهل وسخافة العقل .

قال ابن كثير : (أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ) قَالَ مُجَاهِدٌ: بِظَنٍّ مِنَ الْقَوْلِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: بِبَاطِلٍ مِنَ الْقَوْلِ، أَيْ إِنَّمَا عَبَدْتُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِظَنٍّ مِنْكُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَسَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى) .

(**بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ**) أي :زين لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال .

(زين) من التزيين وهو تصيير الشيء زينا أي: حسناً.

والمكر: صرف الغير عما يريده بحيلة. والمراد به هنا: كفرهم ومسالكهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين.

(**وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ**) أي : منعوا عن طريق الهدى .

(**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**) أي : ومن يضلله الله فما له أحد يهديه .

الفوائد :

١- عموم علم الله تعالى بكل شيء .

٢- أنه لا يستحق العبادة من لا يقدر على شيء ولا يعلم شيء كالأصنام .

٣- ذم من يسوي بين الله العليم بكل شيء بالأصنام العاجزة الجماد .

٤- أن الله هو الواحد الأحد الصمد الحق القيوم الذي لا يموت .

٥- أن من لم يعبد الله فقد زين له سوء عمله .

٦- أن الهداية بيد الله .

٧- سؤال الله الهداية دائماً وابداً .

٨- من أضله الله فلا أحد يستطيع هدايته .

(**لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)**) .

[الرعد : ٣٤] .

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَابَ الْكُفَّارِ وَثَوَابَ الْأَبْرَارِ، فَقَالَ بَعْدَ إِخْبَارِهِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ :

(**لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**) أَيْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا .

(**وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ**) أي المدخر مَعَ هَذَا الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا .

(**أَشَقُ**) أَيْ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ .

كما قال تعالى (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ) .

وقال تعالى (كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) .

وقال تعالى (فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون) .

وَكَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنِينَ (إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ) .

وَهُوَ كَمَا قَالَ ﷺ ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاءٌ ، وَذَاكَ دَائِمٌ أَبَدًا فِي نَارٍ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَوِثَاقٌ لَا يُتَصَوَّرُ كَثَافَتُهُ وَشِدَّتُهُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ) .

وقال تعالى (وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً) .

الفوائد :

١- تهديد الكفار .

٢- تشجيع المؤمنين على قتال الكفار ، فإن الله تعالى وعدهم بالعذاب بالدنيا .

٣- أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

٤- من شدة عذاب الآخرة أنه دائم لا ينقطع .

(مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)) .

[الرعد : ٣٥] .

(**مَّثَلُ الْجَنَّةِ**) أي : صفتها ونعتها .

(**الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**) أي : التي أعدها تعالى لعباده المتقين ، الذي اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

وفي هذا فضل التقوى وأنها من أسباب دخول الجنة .

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) .

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ).

ولما سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة؟ قال (تقوى الله وحسن الخلق) .

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**) أي: تجري من تحت قصورها الأنهار، وليس المعنى أنها تجري من تحت أرضها، والجري هو سير الماء على الأرض، والأنهار جمع نهر وهو الماء الكثير، وهذه الأنهار تجري من غير أخدود كما قال بعض السلف.

وهذه الأنهار فصلها الله في هذه السورة كما سيأتي فقال (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى).

قال ابن القيم : وهذا يدل على أمور: أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

(**أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا**) أي ثمرها دائم لا ينقطع ، وظلها دائم لا تنسخه الشمس .

قال ابن كثير : (أكلُها دائِمٌ وَظِلُّها) أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع وَلَا فَنَاءَ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ ، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ- أَوْ أُرِيتُ الْجَنَّةَ- فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا) .

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّهُ إِذَا فَرَغَ مِنْهُ عَادَ طَائِرًا كَمَا كَانَ بِإِذْنِ الله تعالى .

وقد قال الله تَعَالَى (وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ) .

وقال تعالى (وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا) .

وَكَذَلِكَ ظِلُّهَا لَا يَزُولُ وَلَا يَقْلِصُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا) .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْمُجِدُّ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا) ثم قرأ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ .

(**تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ**) أي : تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم .

(**وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ**) أي : وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار .

قال ابن كثير : وَكَثِيرًا مَا يُقْرِنُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ النَّارِ لِيُرَغِّبَ فِي الْجَنَّةِ وَيُحَذِّرَ مِنَ النَّارِ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ صِفَةَ الْجَنَّةِ بِمَا ذَكَرَ قَالَ بَعْدَهُ: تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ) .

الفوائد :

١- إثبات الجنة .

٢- فضل التقوى .

٣- أن التقوى من أسباب دخول الجنة .

٤- أن من نعيم الجنة الأنهار التي تجري من تحت قصورها .

٥-أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع ولا ينقضي .

٦- أن نعيم الدنيا زائل وينقضي .

٧- أن مصير الكفار النار .

(**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ (٣٧)**) .

[٣٦- ٣٧] .

(**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**) ثناء منه سبحانه على الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه.

والمراد بالكتاب هنا: التوراة والإنجيل.

والمعنى: والذين أعطيناهم التوراة والإنجيل، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك- أيها الرسول الكريم-، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين.

هؤلاء الذين تلك صفاتهم، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن، لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك، يزيدهم إيماناً على إيمانهم، ويقينا على يقينهم.

قال ابن كثير : (يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) أي : من القرآن، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى (الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) .

(**وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ**) أي : ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل إليك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم ... ولم يذكر القرآن هذا البعض الذي ينكرونه، إهمالاً لشأنهم، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض.

(**قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ**) أي : قل- أيها الرسول الكريم- لكل من خالفك فيما تدعو إليه «إنما أمرت أن أعبد الله» وحده «ولا أشرك به» بوجه من الوجوه إليه وحده «أدعو» الناس لكي يخلصوا له العبادة والطاعة «وإليه مآب» أي وإليه وحده إيابي ومرجعي لا إلى أحد غيره.

(**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**) أَيْ : وَكَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ الْمُرْسَلِينَ، وأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ مِنَ السَّمَاءِ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعْرَبًا، شَرَّفْنَاكَ بِهِ، وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

فهذه الجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن الكريم:

فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته، وهو المعبر عنها بكونه : حكماً .

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهي المعبر عنها بكونه : عربياً .

أي: نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأغناها وأجملها.

ثم في كونه (عربياً) امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء، حيث إنه نزل بلغتهم، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه، فهو الكتاب الذي فيه شرفهم وعزهم .

قال تعالى (لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ) أي: فيه بقاء شرفكم .

وقال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ) .

وفي ذلك تعريض بغباء مشركي العرب، حيث لم يشكروا الله تعالى على هذه النعمة، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان.

(**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ**) يا محمد .

(**أَهْوَاءهُم**) الأهواء: جمع هوى، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق، ومطالبهم المتعنتة .

(**بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ**) من الله وهو الوحي .

(**مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ**) يلي أمرك وينصرك .

(**وَلاَ وَاقٍ**) يقيك من حسابه. وسيق هذا التحذير في صورة الخطاب للرسول ﷺ للتأكيد من مضمونه.

فكأنه- سبحانه يقول: لو اتبع أهواءهم- على سبيل الفرض- أكرم الناس عندي لعاقبته، وأحق بهذا العقاب من كان دونه في الفضل والمنزلة .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين) .

الفوائد :

١- أن الله أنزل كتباً قبل القرآن كالتوراة والإنجيل .

٢-إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق .

٣-فضل من آمن من أهل الكتاب بالنبي ﷺ .

٤- الفرح بالقرآن الكريم ، لإعجازه وبلاغته وعظمته .

٥-وجود من كذب القرآن .

٦- وجوب التبليغ على الرسول .

٧- أن أهم وظيفة للرسل الدعوة إلى عبادة الله وترك الشرك .

٨- وجوب عبادة الله تعالى .

٩- تحريم الشرك بكل أشكاله .

١٠- أن المرجع إلى الله .

١١- عظمة الله تعالى لقوله بضمير الجمع (أنزلناه) .

١٢- فضل اللغة العربية ، حيث أن القرآن نزل بها .

١٣-أن أولى الناس الإيمان بمحمد ﷺ هم العرب .

١٤- أن كل دين غير الإسلام فهو هوى ليس بدين .

كما قال تعالى (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ).

وقال تعالى (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم) .

١٥- أن عقاب العالم إذا اتبع هواه ليس كالجاهل الذي لم يأته إلا القليل من العلم .

١٦- أن مقتضى العلم العمل به واتباع الحق .

١٧- أن من عرف الحق ولم يعمل به أعظم إثماً ممن لم يعرف الحق ولم يعمل به .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)) .

[الرعد : ٣٨-٣٩] .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) يقولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا بَشَرِيًّا، كَذَلِكَ قَدْ بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ بَشَرًا، يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَأْتُونَ النِّسَاءَ، وَيُولَدُ لَهُمْ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذَرِّيَّةً .

وقد قال تَعَالَى لِأَشْرَفِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِهِمْ (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) .

وعن أبي أَيُّوب قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ: التَّعَطُّرُ وَالنِّكَاحُ، وَالسِّوَاكُ، وَالْحِنَّاءُ) .

قال الشوكاني: وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء ، أي: هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه .

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ) أَيْ : لَمْ يَكُنْ يَأْتِي قَوْمَهُ بِخَارِقٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ بَلْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) أي : لكل مدة مضروبة كتاب كتبه الله في اللوح المحفوظ ، وكل شيء عنده بمقدار ، قال الطبري : لكل امر قضاه الله ، كتاب قد كتبه فهو عنده .

(يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (يمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ) من الأقدار (وَيُثْبِتُ) ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه ، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال :

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

كما قال تعالى ((مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحدًا من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان بريًا أو بحريًا .

وقال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

أي ما أهملنا ولا أغفلنا ، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء ، بل جميع الأشياء ، صغيرها وكبيرها ، مثبتة في اللوح المحفوظ ، على ما هي عليه ، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

قال السعدي : فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ. (السعدي) .

قال ابن تيمية – في كلام عن الأحاديث التي فيها زيادة العمر –: وَالْجَوَابُ الْمُحَقَّقُ: أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ لِلْعَبْدِ أَجَلًا فِي صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ ، فَإِذَا وَصَلَ رَحِمَهُ زَادَ فِي ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ. وَإِنْ عَمِلَ مَا يُوجِبُ النَّقْصَ نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ ... وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا كَتَبَهُ لَهُ وَمَا يَزِيدُهُ إيَّاهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ لَا عِلْمَ لَهُمْ إلَّا مَا عَلَّمَهُمْ اللَّهُ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَبَعْدَ كَوْنِهَا ، فَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إنَّ الْمَحْوَ وَالْإِثْبَاتَ فِي صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ وَأَمَّا عِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَلَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَبْدُو لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِ فَلَا مَحْوَ فِيهِ وَلَا إثْبَاتَ. وَأَمَّا اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ فَهَلْ فِيهِ مَحْوٌ وَإِثْبَاتٌ عَلَى قَوْلَيْنِ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَه .

هذا القول هو الراجح في معنى الآية .

وهناك أقوال أخرى في الآية :

أحدها : يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران ، قاله ابن عباس.

الثاني : أن الله عز وجل ينسخ ما يشاء من أحكام كتابه ، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه ، قاله قتادة وابن زيد.

الثالث : أنه يمحو مَنْ قد جاء أجلُه ويثبت من لم يأت أجلُه ، قاله الحسن.

الرابع : يغفر ما يشاء من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره ، قاله سعيد بن جبير.

الخامس : أن الحفظة من الملائكة يرفعون جميع أقواله وأفعاله ، فيمحو الله عز وجل منها ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب ، قاله الضحاك.

السادس : أنه يمحو ما يشاء ، ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة ، والحياة والموت .

الفوائد :

١- إثبات الرسل .

٢- كثرة الرسل .

٣- أن آخر الرسل هو رسولنا ﷺ .

٤- أن الله تعالى يبعث في كل أمة رسولاً .

٥- أن النكاح من سنن المرسلين .

٦- استحباب طلب الذرية .

٧- ذم من ترك النكاح تعبداً .

٨- الاقتداء بالأنبياء .

٩- أن الرسل جاءت بالآيات الدالة على صدقهم .

١٠- أن الرسول لا يأتي بآية إلا بأمر الله .

١١-أن كل شيء مقدر عند الله بقدر لا يتأخر ولا يستعجل .

١٢- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر .

١٣- أن الأمر لله تعالى يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء حسب ما تقتضيه الحكمة ، وقد تقدم في الشرح معنى الآية .

١٤- أن اللوح المحفوظ لا يدخله تغيير ولا تبديل ، وإليه ترجع كل الأشياء .

(**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)**) .

[الرعد : ٤٠] .

(**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ**) يا محمد .

(**بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ**) أي : أَعْدَاءَكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ فِي الدُّنْيَا

(**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**) أَيْ : قَبْلَ ذَلِكَ .

(**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ**) أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ، وقد فعلت مَا أُمِرْتَ بِهِ .

(**وَعَلَيْنَا الْحِسابُ**) أَيْ حِسَابُهُمْ وجزاؤهم .

كقوله تَعَالَى (فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُم) .

قال الرازي : المعنى : سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره ، فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب.

وقال الشوكاني : وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به ، وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ، ويصدّق نبوّته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك .

وقال ابن عاشور : وفي هذا إنذار لهم بأن الوعيد نازل بهم ولو تأخر ؛ وأن هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأنه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعاً ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه الذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعاً مستمراً بعده ، ضرورة أن الوسيلة لا تكون من الأهمية بأشدّ من المقصد المقصودة لأجله.

وقد أرى الله نبيئه بعض ما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبي ﷺ ولم يُرِهِ بعضه مثل عذاب أهل الردة فإن معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل : مسيلمة الكذاب.

الفوائد :

١-تأنيس الله لنبيه ﷺ .

٢- تهديد الله لأعدائه بالانتقام .

٢- أن الله ينتقم من أعدائه إما عاجلاً وإما آجلاً .

٣- حكمة الله تعالى في تأخير العذاب أحياناً عن الكفار .

٤- أن الرسل تموت كما يموت البشر .

٥- أن مهمة الرسول البلاغ .

٦- أن الله هو الذي يحاسب الناس ، ويعلم الصادق من الكاذب .

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)) .

[الرعد : ٤١] .

(**أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**) أي : نفتحها للإسلام بلداً بعد بلد أليس ذلك آية دالة على صدق الرسول ﷺ وصحة دعوته .

قال الشنقيطي : فِي مَعْنَى إِتْيَانِ اللَّهِ الْأَرْضَ يَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَقْوَالٌ مَعْرُوفَةٌ لِلْعُلَمَاءِ ، وَبَعْضُهَا تَدُلُّ لَهُ قَرِينَةٌ قُرْآنِيَّةٌ :

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا : مَوْتُ الْعُلَمَاءِ .

وَجَاءَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَبُعْدُ هَذَا الْقَوْلِ عَنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ دَلَالَةِ السِّيَاقِ ظَاهِرٌ كَمَا تَرَى .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا خَرَابُهَا عِنْدَ مَوْتِ أَهْلِهَا .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : نَقْصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا هُوَ نَقْصُ الْأَنْفُسِ ، وَالثَّمَرَاتِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَرِينَةُ الْقُرْآنِيَّةُ فَهُوَ أَنَّ مَعْنَى نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَيْ : نَنْقُصُ أَرْضَ الْكُفْرِ وَدَارَ الْحَرْبِ ، وَنَحْذِفُ أَطْرَافَهَا بِتَسْلِيطِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا وَإِظْهَارِهِمْ عَلَى أَهْلِهَا ، وَرَدِّهَا دَارَ إِسْلَامٍ .

وَالْقَرِينَةُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى هِيَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ (أَفَهُمُ الْغَالِبون) وَالِاسْتِفْهَامُ لِإِنْكَارِ غَلَبَتِهِمْ . وَقِيلَ : لِتَقْرِيرِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ لَا غَالِبُونَ ، فَقَوْلُهُ : أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَقْصَ الْأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا سَبَبٌ لِغَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ لِلْكُفَّارِ ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْمَعْنَى الْمَذْكُورِ . وَمِمَّا يَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقَارِعَةِ الَّتِي تُصِيبُهُمْ سَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ تَفْتَحُ أَطْرَافَ بِلَادِهِمْ ، أَوْ تَحُلُّ أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ .

وَمِمَّنْ يُرْوَى عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ : ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو سَعِيدٍ ، وَعِكْرِمَةُ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ هُنَا ذَكَرَهُ فِي آخِرِ سُورَةِ «الرَّعْدِ» أَيْضًا فِي قَوْلِهِ : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ «الْأَنْبِيَاءِ» هَذِهِ : إِنَّ أَحْسَنَ مَا فُسِّرَ بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون) . (أضواء البيان) .

وقال ابن كثير : وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى، وَهُوَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى الشِّرْكِ قَرْيَةً بَعْدَ قرية، كقوله : وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الخازن : قال أكثر المفسرين : المراد منه فتح دار الشرك فإن ما زاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنفتحها لمحمد ﷺ أرضاً بعد أرض حوالى أراضيهم أفلا يعتبرون ، فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين : وذلك أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار قهراً وتخريباً كان ذلك نقصاناً في ديارهم ، وزيادة في ديار المسلمين ، وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه ، وينجز له ما وعده .

وقال ابن عاشور : وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد (بالأرض) أرض الكافرين من قريش فيكون التعريف للعهد ، وتكون الرؤية بصرية ، ويكون ذلك إيقاظاً لهم لما غلب عليه المسلمون من أرض العدوّ فخرجت من سلطانه فتنقص الأرض التي كانت في تصرفهم وتزيد الأرض الخاضعة لأهل الإسلام.

(**وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**) أي : ليس يتعقب حكمه أحد ، بنقض ولا تغيير ولا رد ، فيرفع هذا ويضع هذا ، ويحيي وهذا ويميت هذا ، ويغني هذا ، ويفقر هذا ، وقد حكم بعزّة الإسلام وعلوّه على الأديان .

قال تعالى (وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ) .

(**وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) يحتمل معنيان: يحتمل أن يوم الأخر – الذي يقع فيه الحساب – أن مجيئه قريب وسريع، وكل ما هو آت قريب والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب.

كما قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ).

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

ويحتمل – وهو المتبادر –: أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك عليهم فإن ذلك يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة.

كما قال تعالى (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ).

ووصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه.

– في الآية إثبات الحساب:

تعريف الحساب:

لغة: العدد.

وشرعاً: اطلاع الله عباده على أعمالهم، وتقريرهم عليها.

وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ).

وقال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً).

وأما من السنة:

فقد كان النبي ﷺ يقول في بعض صلاته: (... اللهم حاسبني حساباً يسيراً) فقالت عائشة: (ما الحساب اليسير؟ قال: (أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه). رواه أحمد، وقال الألباني: إسناده جيد.

وأجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة.

يستثنى من الذين لا يحاسبون من يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

كما جاء في الصحيحين. أن النبي ﷺقال (عرضت عليّ الأمم ... الحديث وفيه: ورأيت أمتي ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون).

يشمل الحساب حتى الجن.

لأنهم مكلفون مأمورون كالإنس.

ولذلك الجني الكافر يدخل النار بالاتفاق.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ...).

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ).

ويدخل مؤمنهم الجنة كما هو مذهب أكثر العلماء:

لعموم قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

ولقوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ).

ولقوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ).

صفة حساب المؤمن:

يخلو به ربه ويقرره بذنوبه، ثم يسترها ويغفرها.

عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺيقول (يُدنَى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب! أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم). متفق عليه

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ومع ذلك، فإنه سبحانه يضع عليه ستره، بحيث لا يراه أحد، ولا يسمعه أحد، وهذا من فضل الله على المؤمن، فإن الإنسان إذا قررك بجنايتك أمام الناس وإن سمح عنك، ففيه شيء من الفضيحة، لكن إذا كان ذلك وحدك، فإن ذلك ستر منه عليك.

وأما الكفار فيحاسبون حساب تقريع وتوبيخ، وليس محاسبة حسنات وسيئات.

كما في حديث ابن عمر السابق وفيه (... وأما الكفار والمنافقون فيُنادَى بهم على رؤوس الخلائق، هؤلاء الذين كذبوا على الله).

وهو عسير عليهم.

كما قال تعالى (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً).

وقال تعالى (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ).

وإنما كان الحساب شديداً، لأنه لا يدع شاردة ولا واردة إلا أتى بها (أحصاه الله ونسوه) .

وأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله: الصلاة.

لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ(أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله). رواه الترمذي

وأول ما يقضى فيه بين الناس في الدماء.

لقوله ﷺ(أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء). متفق عليه <

يُسأل العبد عن كل شيء، ومن أهم الأمور التي يُسأل عنها:

أولاً: الكفر والشرك.

كما قال تعالى (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ).

ثانياً: ما عمله في الدنيا.

كما قال تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وعن أبي برزة. قال: قال رسول الله ﷺ (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه) رواه الترمذي.

ثالثاً: النعيم الذي يتمتع به.

قال تعالى (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

رابعاً: العهود والمواثيق.

كما قال تعالى (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً).

خامساً: السمع والبصر والفؤاد.

كما قال تعالى (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً).

قواعد عامة في الحساب:

أ- العدل التام في الحساب.

قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة).

وقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

فتيلاً: هو الخيط الذي يكون في شق النواة. **نقيراً:** النقير النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة.

ب- لا يؤاخذ أحد بجريرة أحد.

قال تعالى (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

وقال تعالى (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

أي لتؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقِبة بإثمها.

ج- الله سريع الحساب.

- البهائم لا حساب عليها حساب حسنات وسيئات وإنما يجري بينها القصاص.

عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال (لتؤدن الحقوقَ إلى أهلها حتى يقادَ للشاةِ الجَلْحَاء من الشاة القرناء) متفق عليه. ...

الجلحاء: بفتح الجيم وسكون اللام وهي التي لا قرن لها.

الحكمة: ليظهر عدل الله حتى في البهائم.

الفوائد :

١- انتصار الإسلام وانتشاره في ظرف ربع قرن أكبر دليل على أنه حق .

٢- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .

٣- أن الله لا يُغلب .

٤- أن الحكم لله تعالى .

٥- لا أحد يستطيع أن يرد حكم الله أو ينقضه أو يؤخره .

٦- إثبات الحساب .

٧- قدرة الله وعظمته في سرعته في الحساب .

٨- أن الله لا يعجزه شيء .

٩- وجوب الحذر من مخالفة أوامر الله ، فإن الله سريع الحساب .

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)) .
[الرعد : ٤٢] .

(**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**) يقول تعالى: وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِرُسُلِهِمْ، وَأَرَادُوا إِخْرَاجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ، فَمَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَجَعَلَ العاقبة للمتقين .

كقوله (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ) .

وقوله تَعَالَى (وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا) .

(**فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا**) أي : إذا فلا عبرة بمكرهم ولا قيمة له فلا يرهب ولا يلتفت اليه .

قال الشوكاني : (وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا) أي : قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل؛ فكادوهم وكفروا بهم ، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ، وأن المكر كله لله .

(**يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ**) أَيْ : إِنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَسَيَجْزِي كل عامل بعمله .

وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) أي : وسيعلم الْكُفَّارُ، لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ أَيْ لِمَنْ تَكُونُ الدَّائِرَةُ وَالْعَاقِبَةُ لَهُمْ أَوْ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ، كَلَّا، بَلْ هِيَ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

الفوائد :

١- إثبات الرسل قبل محمد ﷺ .

٢- أن كل رسول يوجد من يكذبه .

٣- ابتلاء الله لأنبيائه بتكذيب الرسل .

٤- تسلية لكل داعية إذا وجد من يكذبه من الناس .

٥- أن الله يمكر بالماكرين .

٦- عموم علم الله تعالى لكل شيء .

٧- وجوب الخوف من الله ، لأن الله لا تخفى عليه خافية .

٨- الإخلاص في العمل ، لأنه لا يضيع شيء عند الله .

٨- تهديد لكل كافر وظالم ، أن الله عالم ومطلع عليهم ، وسيجازيهم على ذلك .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)) .
[الرعد : ٤٣] .

(**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً**) يقول تعالى: يكذبك هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ وَيَقُولُونَ: لَسْتَ مُرْسَلًا أَيْ مَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ .

(**قُلْ**) لهم يا محمد .

(**كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**) أي : حسبي الله هو الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ. شَاهِدٌ عَلَيَّ فِيمَا بَلَّغْتُ عَنْهُ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ فِيمَا تَفْتَرُونَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ .

قال السعدي : وشهادته بقوله وفعله وإقراره :

أما قوله : فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.

وأما فعله : فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

و**أما إقراره** : فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

وقال الشيخ ابن عثيمين : وقد شهد الله لنبيه ﷺ بأنه رسوله حقاً بشهادتين: شهادة قولية، وشهادة فعلية.

أما الشهادة القولية: ففي قوله تعالى (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً).

وأما الشهادة الفعلية: فهي تمكينه من إبلاغ الرسالة، ونصره على أعدائه.

وقال الخازن : لمراد بشهادة الله على نبوة محمد ﷺ ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه ، وكونه نبياً مرسلاً من عند الله .

(**وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**) أي : وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب ، كعبد الله ابن سلام وامثاله من الاحبار والرهبان !

قال ابن كثير : قِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بن سلام، قال مُجَاهِدٌ ، وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ إِنَّمَا أَسْلَمُ فِي أَوَّلَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَالْأَظْهَرُ فِي هَذَا مَا قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

ثم قال : .... وَالصَّحِيحُ فِي هَذَا أَنَّ وَمَنْ عِنْدَهُ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَجِدُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ بِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ) .

وَقَالَ تَعَالَى (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ) .

وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ الْإِخْبَارِ عَنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِهِمُ الْمُنَزَّلَةِ. (التفسير) .

وقال الشنقيطي : الظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ عَطْفٌ عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَيَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ) وَقَوْلُهُ (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) وَقَوْلُهُ (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ الْآيَةَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

قال السعدي : وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم والله أعلم.

الفوائد :

١- إثبات رسالة النبي ﷺ .

٢- وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ .

٣- كفر من ينكر رسالة النبي ﷺ .

٤- الله أكبر شهيد على صدق نبوته ﷺ .

٥- شهادة الله أعظم شهادة ، فلا تطلب بعدها شهادة اذا كان الخصام بين مؤمنين .

٦- فضل العالم على الجاهل ، اذ شهادة مؤمني أهل الكتاب تقوم بها الحجة على من لا علم لهم من المشركين .